الباب الأول

الاتجاه الغربى

الفصل الأول: مراحل الغزو الفكرى الغربى.

الفصل الثانى: التغيير السياسى والاجتماعى فى المنطقة الإسلامية.

الفصل الثالث: ماذا يفعل بنا الصليبيون ؟

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

مراحل الغزو الفكرى الغربى

مقدمة:

وجود الغرب المسيحى هنا فى شرقنا الإسلامى لم يكن صدفة ، بدأ بالوجود المادى العسكرى ، وتبعه الاستشراق والتبشير (الوجود المعنوى)، وأعقبه مرة أخرى الوجود العسكرى (الاستعمار وتقطيع أوصال دولة الخلافة الإسلامية) ، ثم أعقبه بث فكرة فصل الدين عن الدولة ، وفكرة القومية ، ثم الإجهاز على الخلافة الإسلامية ، وأخيرا - حين رحلت جنوده - أبقى له جنودا آخرين ، من جلدتنا ويتحدثون بلساننا ، وبهم أجرى التغيير السياسى المطلوب، وأجرى التغيير الاجتماعى المقصود .

ولنحاول أن نقسمها إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى :

مرحلة ما قبل إسقاط الخلاف الإسلامية ، ونتحدث عنها فى مبحث أول .

المرحلة الثانية :

مرحلة الإجهاز على الخلافة الإسلامية ، ونتحدث عنها فى مبحث ثان .

المرحلة الثالثة :

مرحلة ما بعد إسقاط دولة الخلافة ، ونتحدث عنها فى مبحث ثالث .

المبحث الأول

مرحلة ما قبل إسقاط الخلافة الإسلامية

إرت وتبدأ بالحروب. الصليبية، ثم الاستشراق ، ثم التبشير .

أولا : الحروب الصليبية

لسنا نكتب تاريخا ، ولكننا نستخلص عبرا من الحقائق التاريخية المسلم بها ، فمن هذه الحقائق أن الغرب جرد حملات غزت الشرق الإسلامى باسم الصليب وتحت رايته ، وكان رجال الكنيسة فى أوربا يدفعون الملوك والشعوب إلى هذه الحروب [1]، فاتخذت بذلك طابعا دينيا شكلا وموضوعا ، وكان تفرق المسلمين إلى دويلات ، وضعف دولتهم مشجعا لهم على ذلك الغزو ، وليس صحيحا ما يحاول بعض الكتاب العرب تصويره من أنها كانت مجرد حملات استعمارية باحثة عن

---

(١) أول من دعا إلى هذه الحروب الصليبية – كما يقول صاحب كتاب حاضر العالم الإسلامى – هو البابا سلفستر الثانى سنة ١٠٠٢ م ، ولكنه لم يوفق ، ثم البابا خريغوريوس سنة ١٠٧٥ م، لكنها تأخرت حوالى عشرين سنة حتى سنة ١٠٩٧ – وكان كتّاب النصارى ومفكروهم يحرضون عليها ، كذلك نذكر منهم ، هلتون ساتيتو ، ومارينو ، بيين ديبوا ، جيلوم دى نوجارى ، ريموند لول بتراك .

وفى كتاب تاريخ البابوات ، تأليف السيد فرناند هايوارد بيان كيف ألب البابوات ملوك أوربا لحرب المسلمين ، وكيف حاولوا بأنفسهم قيادة هذه الحروب الصليبية راجع : حاضر العلم الإسلامى ، تأليف لوثروب ستودارد ، نقله إلى العربية الأستاذ عجاج نويهض ، وعلق عليه تعليقات مستفيضة الأمير شكيب أرسلان – دار الفكر ، الطبعة الثالثة ١٣٩١ هـ ١٩٧١م ص ٢١٨ . وقد كتب كارلس الثامن إلى رئيس فرسان رودس يكاشفه . بما نواه من نشر الديانة المقدسة الكاثوليكية وتحرير المسيحيين مما هم فيه من الخنوع للأمية الجاحدة، واسترداد الأراضى المقدسة المغصوبة ، فأجابه رئيس الفرسان متيمنا مؤملا هذه المرة استئصال شأفة الأمة الملعونة أمة محمد ص ٥٩ من كتاب : مائة مشروع لتقسيم تركيا- تأليف المسيو دجوقارا (الأمانى المرجع السابق ص ٢٢٨) .

ويشير المؤرخون إلى أن الحملة الصليبية عند دخولها بيت المقدس فى ١٥ يوليو ١٠٩٩ م الموافق ٢ رمضان ٤٩٣ ذبحت أكثر من سبعين ألف مسلم ، حتى سبحت الخيل إلى صدورها فى الدماء ، وفى أنطاكية قتلوا فى الطريق أكثر من مائة ألف مسلم .

راجع ، حاضر العالم الإسلامى ، وراجع كذلك جوستاف لوبون فى كتابه : حضارة العرب .

المصالح الاقتصادية .نعم، قد يكون الاستعمار والاستغلال الاقتصادى من أهدافها، لكنه بالتأكيد ليس الهدف الأول الرئيسى، إنما كان هذا هدفا دينيا، ولم تكن حماسة رجال الدين المسيحى ولا مشاركتهم فى هذه الحملات عفوا ولا لغوا، ولكنه كان قصدا إلى الانتقام من غزو الإسلام لقلب أوربا ، حتى صار البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية خالصة، وحتى بلغ المسلمون جنوب فرنسا، ثم قصدا بعد الانتقام إلى إدخال المسلمين فى المسحية ذاتها ، وهو ما ستفسره المرحلة التالية لهذه الحروب ، والأمران يفسرهما قول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة : ١٢٠] وقوله : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟﴾ [البقرة : ٢١٧].

وقد يكون صحيحا ما أشار إليه كاتب أمريكى[1]، من أن اليهود كانوا وراء الحروب الصليبية ، قصدا إلى أضعاف العالمين المسيحى والإسلامى كما أشار، ثم تحقيقا لمزيد من الكسب والربا أثناء تلك الحروب .

لكن، لو لم يحركهم اليهود لتحركوا كذلك ، فإن ما بدا منهم فى تلك الحروب ينم عن حقد دفين، وما تخفى صدورهم أكبر .

العصمة فى الإسلام للأمة لا للإمام :

ولئن كانت الدولة الإسلامية فى ذلك الحين مفككة الأوصال ، فلقد جعل الله من معجزات دينه - بعد القرآن - هذه الأمة ، فلقد حولها القرآن بحق خير مة أخرجت للناس، حتى صح ما قيل من أن العصمة فى الإسلام للأمة لا للإمام، أخذا من قول الرسول ﷺ : «لا تجتمع أمتى على ضلالة »، ثم استمدادا من أحداث التاريخ التى ظلت معها الأمة الإسلامية صامدة شامخة ، برغم ما وجه إلى صدرها وقلبها من سهام وحراب.. ! .

---

(١) الكاتب الأمريكى : وليام غاى قار .

انتفضت الأمة لما رأت الصليب فوق رءوس أعدائها ، انتفضت تحارب أعداء الله وأعداءها بكل سبيل، واسترخصت الدم والروح فى سبيل الله وتعجلت لقاء الله وجنته، فأعطاها الله الحسنيين النصر والجنة، وارتدت حملات الصليب على أعقابها خاسرة بعد معارك طاحنة استمرت قرنين كاملين، وفى قصص التاريخ لبطولات المسلمين فى هذه الحروب، وتفننهم فيها ما يحتاج إلى أن يكتب بأحرف من نور .

وبرز نور الدين الشهيد محمود بن زنكى التركى ، ثم برز صلاح الدين الأيوبى الكردى ، وغيرهما ممن قادوا جماهير الأمة إلى النصر ؛ لتثبت عالمية هذه الدعوة ، فلا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وجاهد جماهير من التركستان الحبيبة (التى ترزح تحت الإلحاد الشيوعى المجرم) وحرروا أرض الإسلام من جحافل الصليبية الحاقدة ، بينما لم يجد هؤلاء من يقف إلى جوارهم يوم أعدمت روسيا منهم ثلاثة ملايين !

وأيقن الغرب المسيحى أنه مهما ضعفت دولة الإسلام ، فإنه لن يستطيع النيل منها ومن أمتها ، حتى ينال أولا عقيدتها وفكرها .

وكانت المرحلة الثانية – مرحلة الاستشراق والتبشير .

ثانيا : الاستشراق

وقبل أن يظهر التبشير – كبديل عن الحروب لتحطيم عقيدة المسلمين وفكرهم ـ نشير إلى أن الحروب الصليبية أنتجت كذلك إنتاجا فكريا (هو الاستشراق)، إذ نفر قوم من الغربيين يدفعهم التعصب الصليبى إلى الكتابة عن الإسلام، فأفقدهم التعصب أمانة العلم ، وعمدوا إلى تشويه الإسلام من عدة نواح .

ـ فرددوا أن القرآن من وضع محمد ﷺ ، وأن سذاجة الصحابة وإيمانهم دفعهم إلى نقله على أنه من عند الله.

ـ وخلطوا فى مصادر الأحكام الإسلامية بين المصادر الإلهية (القرآن والسنة) وبين الاجتهاد ، ونظروا إلى الجميع على أنها من صنع البشر فسووا بينها فى المنزلة !

ـ ودعوا إلى التصوف الإسلامي؛ لما يؤدى إليه فى أكثر الأحيان من صرف أصحابه عن الجهاد ، وهو أكثر ما يثير الصليبيين ويفزعهم (راجع الصوفية فى الإسلام للمستشرق نيكلسون ص ٧ ، ٨) .

وقد بدأ الاستشراق فى الأندلس (أسبانيا) فى القرن السابع الهجرى ، حين اشتدت حملة الصليبيين الأسبان على المسلمين ، فدعا (ألفونس) ملك قشتالة ميشيل سكوت ليقوم بالبحث فى علوم المسلمين وحضارتهم، فجمع سكوت طائفة من الرهبان فى بعض الأديرة بالقرب من مدينة طليطلة، وشرعوا يترجمون بعض الكتب من اللغة العربية إلى لغة الفرنجة ، ثم قدمها سكوت لملك صقلية الذى أمر باستنساخ نسخ منها وبعث بها هدية إلى جامعة باريس .

وكذلك قام رئيس أساقفة طليطلة ريمون لول بنشاط كبير فى الترجمة ، ومع الزمن توسع الأوربيون بالنقل والترجمة فى مختلف الفنون والعلوم من إلهيات، وطب، وهندسة وفلك، وغيرها ، وبعد اختراع الطباعة أنشئت فى أوربا مطابع عربية لطبع عدد من الكتب التى كانت تدرس فى المدارس، والجماعات الأوربية .

ولم يكن عمل المستشرقين منفصلا عن عمل المبشرين ، بل كانت مهمة كل من الطائفتين تدخل فى الأخرى . وكان فشل الصليبيين فى حملاتهم المتوالية على الشرق الإسلامى دافعا للمزيد من الاهتمام بالثقافة الإسلامية ، وقد ظهرت أخيرا وثيقة خطيرة تلقى الضوء على تحول الصليبيين من الغزو العسكرى إلى الغزو الفكرى ، وهذه الوثيقة تتضمن وصية (القديس) لويس ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية الثامنة التى انتهت بالفشل والهزيمة ووقوع (لويس) فى أسر المصريين فى مدينة المنصورة ، وقد بذل الملك لويس فدية عظيمة للخلاص من الأسر ، وبعد أن

عاد إلى فرنسا أيقن أنه لا سبيل إلى النصر، والتغلب على المسلمين عن طريق القوة الحربية ؛ لأن تدينهم بالإسلام يدفعهم للمقاومة، والجهاد وبذل النفس فى سبيل الله لحماية ديار الإسلام ، وصون الحرمات والأعراض به ، والمسلمون قادرون دوما للانطلاق من عقيدتهم إلى الجهاد ودحر الغزاة ، وأنه لابد من سبيل آخر ،وهو تحويل التفكير الإسلامى، وترويض المسلمين عن طريق الغزو الفكرى، بأن يقوم العلماء الأوربيون بدراسة الحضارة الإسلامية ليأخذوا منها السلاح الجديد الذى يغزون به (الفكر) الإسلامى ، وهكذا تحولت المعركة من ميدان السلاح إلى معركة فى ميدان العقيدة والفكر بهدف تزييف عقيدة المسلمين الراسخة ، التى تحمل طابع الجهاد، وتدفع المؤمنين إلى الاستشهاد .

وقد سار الأوربيون فى طريق تنفيذ وصية القديس لويس فى تزييف العقيدة الإسلامية، وامتصاص ما فيها من قوة، وجهاد، وإيمان عن طريق التفرقة بين العقيدة والشريعة، وتصوير الإسلام بصورة الدين الذى يبذل غاية همه فى العبادة كالمسيحية، إلى أن وصلوا إلى الفصل بين الدين والدولة ، وفقد المسلمون ذلك السر الخطير الكامن فى أصالة عقيدتهم وجوهر دينهم [1].

ويرى كثير من الباحثين أن الاستشراق تولد من الاستعمار والتبشير .

فالاستعمار : يرى فى المفهوم الإسلامى السليم ما يعطى المجتمع الإسلامى قوة تحول بينه وبين سيطرة الاستعمار ، فعمل المستشرقون على تقويض العقيدة الإسلامية ، وإحلال مفاهيم تحل الصداقة بين الدول الغالبة والمغلوبة محلها ، تحت اسم : الحضارة ، أو العالمية أو وحدة الثقافة والفكر البشرى .

وأما التبشير ، فإنه يستهدف الحيلولة دون توسع الإسلام وانتشاره ، وعدم منافسته للمسيحية فى البلاد التى تحاول القيام بالتبشير ونشر المسيحية فيها .

(١) الإسلام فى وجه التغريب : مخططات الاستشراق والتبشير للأستاذ أنور الجندى ص ٧ ، ٨ .

والخطر الأكبر فى نظر المبشرين هو فى وصول مفاهيم الإسلام الصحيحة إلى عالم الغرب نفسه ، ومما يذكر أن المسلمين لما فتحوا مدينة القسطنطينية – عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، وفيها مركز البابوية للكنائس الشرقية – هب رجال الكنيسة وقد هالهم الخطب العظيم ، فأخذوا فى الافتراء والتشنيع على الإسلام وتشوية أحكامه الإلهية العادلة ، وكان الدافع لهم فى هذه الحملة الحيلولة بين رعاياهم الذين أقبلوا على الدخول فى دين الله أفواجا ، ليصدوهم عن الإسلام الذى يبيح تعدد الزوجات والطلاق .

وجاءت الصهيونية ، فدخلت ميدان الاستشراق لتحول دون اجتماع المسلمين فى وحدة تقاوم اليهودية العالمية ، وتواجه دولة اليهود الباغية (إسرائيل) ، والمستشرقون اليهود يعملون فى هذا المجال .

تطور الاستشراق :

وفى مطلع القرن الثالث عشر الهجرى (أواخر القرن الثامن عشر الميلادى) عمد المستشرقون إلى تغيير أساليبهم ، وأرادوا أن يظهروا بمظهر جديد هو ما زعموه من تحرير الاستشراق من الأغراض التبشيرية ، والاتجاه به وجهة البحث العلمى البحت ، فأنشئت كليات لتدريس اللغات الشرقية فى عواصم أوربا مثل لندن، وباريس، وليدن، وبرلين وبطرسبرج، وغيرها ، وظهرت فيها أقسام خاصة لدراسة اللغة العربية وبعض اللغات الإسلامية كالفارسية، والتركية، والأردية ، وكان الغرض الأول منها تزويد السلطات الاستعمارية بخبراء فى الشؤون الإسلامية ، ثم أخذ الطلاب المسلمون يؤمون هذه الكليات الأوربية للدارسة فيها، وبذلك تأثر الفكر الإسلامى بما يلقيه المسشرقون فى أذهان هؤلاء المبعوثين من أبناء المسلمين، ثم تسلل المستشرقون إلى الدوائر العلمية والجامعات فى الدول الإسلامية، بل إلى المجامع العلمية فى القاهرة ودمشق، وبغداد، وقامت المؤسسات

الدينية، والسياسية، والاقتصادية فى الغرب بما كان يقوم بـه الملـوك فى المـاضى مـن الإغداق على المستشرقين ، وتقديم المنح والمعونات لهم .

وقد أنشأت الـدول الاسـتعمارية عـدة مؤسـسات فى الـبلاد الإسـلامية التـى خضعت لنفوذها لخدمة الاستشراق ظاهريا، وكان هدفها الحقيقى خدمة الاستعمار والتبشير الكاثوليكى والبروتستانتى، من هذه المؤسسات فى مصر : المعهـد الـشرقى بدير الدومينيكان ، والمعهـد الفرنـسى، ونـدوة الكتـاب ، ودار الـسلام، والجامعـة الأمريكية، وفى لبنان : جامعة القـديس يوسـف (وهـى جامعـة بابويـة كاثوليكيـة وتعرف الآن بالجامعة اليسوعية) والجامعة الأمريكية ببيروت، (وكانت تسمى من قبل الكلية السورية الإنجيلية وهى بروتستانتية)، وفى سـورية : مـدارس اللاييـك، والفرير، ودار السلام، وغيرها .. وهكذا فى كل الأقطار الإسلامية ..

أهداف المستشرقين :

أولا : الحيلولة بين الشعوب النصرانية وبين الإسلام ، فقـد عمـل المستـشرقون على تشوية الإسلام وحجب محاسنة ؛ لإقناع قومهم بعدم صلاحيته لهم نظام حياة ، ولعل هذا هو أخطر الجوانب التـى قـام لأجلهـا الاسـتشراق والتبـشير، وذلـك فى أعقاب الحروب الـصليبية، وعـودة المحـاربين إلى أوربـا ، يحملـون صـورة مـشرقة لمعاملات المسلمين لهم وسماحة الإسلام، وقـد عمـد رجـال الكنيـسة إلى إخـراس الألسنة المنصفة، وحاولوا ترجمة القرآن لتزييف مفاهيمة: وانتقاصها . وقـد اسـتغل الاستشراق كراهية الأوربيين للإسلام بعد التوسع العثمانى فى أوربـا ، ومـا صـحبه من تعصب وحروب استمرت عدة قرون، فعمل المستشرقون على تعميق الكراهيـة والأحقاد فى نفـوس الأوربيـين وتغـذيتها بالـشبهات والأباطيـل، بهـدف حجـب الإسلام عن أوربا والحيلولة دون نفاذه إليها .

ثانيا : تأييد الغزو الاستعمارى لبلاد المسلمين والعمل لتحطيم المقاومة الإسلامية، بتأويل الجهاد، وصرف أنظار المسلمين إلى الدعة، والقعود عن الجهاد فى سبيل الله،ومدافعة الغزاة بالاشتغال بالعبادة والزهد وتسميتها بالجهاد الأكبر، وتحطيم وحدة المسلمين وتمزيق الدول الإسلامية، وعزل الشريعة الإسلامية عن التطبيق فى المجتمع الإسلامى، وإحلال الأنظمة القانونية، والاقتصادية، والسياسية، والتربوية لتحل محل الإسلام بالقوة .

ثالثا : فصل المسلمين عن جذورهم الثابتة الأصيلة، بتشويه تلك الأصول، وعزلها عن مصادرها، وهدم المقومات الأساسية للكيان الفردى، والاجتماعى، والنفسى، والعقلى للمسلمين ، ومن شأن هذا أن يفتح الباب إلى الاستسلام أمام الاستعمار، وثقافته، وفكره، والتأثير فى نفوس المسلمين ، وزحزحة عقائدهم ، بما يفتح للتبشير المسيحى طريقا إلى تحويل بعض ضعاف العقيدة إلى ملاحدة وأتباع [1].

والخلاصة: فقد كان المستشرقون طلائع للمبشرين، يمهدون السبيل أمامهم لتشكيك المسلمين فى عقائدهم، ويفتحون أمام دعاة النصرانية السبيل للطعن فى الإسلام، ونبيه ﷺ بأنواع شتى من الشعوذة باسم البحث والاستنتاج التحليلى .

تلاميذ المستشرقين :

وتبدو خطورة الاستشراق فى آثاره الخطيرة التى يفرضها المستشرقون على مناهج التعليم، والثقافة والفكر فى العالم الإسلامى، وقد حرص المستشرقون على كسب الأنصار واستخدام الأتباع لترديد مفترياتهم على الإسلام، وافتعال معارك حول عقائده وآدابه ومختلف أحكامه لتعميق المفاهيم التى يريدون فرضها، وترسيخها فى الأذهان، وتوسيع دائرة الانتفاع بها .

ولقد كان طه حسين فى مقدمة الذين أعلنوا الإعجاب والتقدير لمناهج

(١) الإسلام فى وجه التغريب ص ٣٧٠ ، ٣٧١.

المستشرقين، ويعتبر حامل لواء الدفاع عنهم، وعن أهوائهم، وكثيرا ما يقول : إن هذه الحقيقة أو تلك فى تاريخ المسلمين، أو فكرهم مما لا يرضى بها الاستشراق . وهذا أسلوب لا يقوم عليه إلا واحد من أهل التبعية، حتى قال بعضهم . إن طه حسين ليس إلا مستشرقا من أصل عربى، وقد كانت أمانته للفكر الغربى، ولمذاهب الاستشراق تفوق أمانة المستشرقين أنفسهم، وهكذا كان متابعا لهم، مقتنعا بما يقولون إلى أبعد حدود الاقتناع، حتى فى تلك المسائل الخطيرة، كقولهم ببشرية الرسول، وبشرية القرآن، وكانت كتاباته توحى بذلك، وإن لم يعلنه جهارا، بعد أن صودر كتابه «فى الشعر الجاهلى».

وأعجب ما فى طه حسين ولاؤه الشديد لانطواء المسلمين تحت لواء الغرب، وانصهار الإسلام فى بوتقة الأممية، والمسيحية واليهودية والغرب جميعا . فهو لا يرى للعرب والمسلمين سبيلا للنهضة إلا فى هذا الانصهار، وهذا الاحتواء والذوبان، وقد صرح بذلك فى كتبه وخاصة ما أورده فى كتاب :«مستقبل الثقافة فى مصر» . فهو يرى أن العرب قوم مستعمرون كالرومان والفرس .

ويظهر اتجاه طه حسين فى حرصه على نشر الكتب التى تثير الشبهات، وفى مقدمتها «رسائل إخوان الصفاء» وتجديد طبع «ألف ليلة وليلة»، وعنايته بدراسة سير المجان من الشعراء فى كتابه «حديث الأربعاء» وهو ثلاثة مجلدات . وقد خرج من دراستهم بشبهة مسمومة هى قوله : « إن القرن الثانى للهجرة كان عصر شك ومجنون »، وقد اعتمد فى بحثه على مصادر أساتذته من المستشرقين اليهود ، وعلى «أنساب الأشراف »الذى طبع فى الجامعة العبرية فى القدس ـ التى تحتلها إسرائيل ـ وجارى مستشرقى اليهود فى إنكار شخصية عبد الله بن سبأ «ابن السوداء »، وفى الشك بوجود إبراهيم وإسماعيل، وأعلن أنه يشك فى وجودهما بالرغم من الإشارة إليهما فى التوراة والقرآن [1].

(١) الإسلام فى وجه التغريب ص ٣٦٣ ، وقد كان هذا الإنكار، وأمور أخرى سببا فى طرد طه حسين من الجامعة، المصرية ومصادرة كتابه « فى الشعر الجاهلى »ولكن نفوذ الاحتلال الإنجليزى سرعان ما أعاده إلى الجامعة ومضى به صعدا لأعلى المناصب .

ومثل طه حسين فى هذه التبعية للمستشرقين : سلامة موسى، وحسين فوزى، وزكى نجيب محمود، ومحمود عزمى، وعلى عبد الرازق وغيرهم، وقد لقحت مناهج المستشرقين فى البحث، والنقد العلمى قرائح كثير من تلاميذ المستشرقين ، فنهجوا نهجهم، وأخذوا طريقهم فيما حاولوا من دراسات ، وخاصة فى مجال الجامعة، والثقافة، والصحافة : وحملوا نفس الروح التى يحملها أساتذتهم فى خصومة الإسلام ، وكانوا أشد قسوة على أهليهم من الغربيين [1].

آثار الاستشراق :

١-كان الاستشراق وراء كل شبهة، أو دعوة خطيرة أحدثت تحولا فى المجتمع الإسلامى فى العصر الحديث ، فقد كان المستشرقون يلقون الشبهة، أو الدعوة ثم يتبعهم الكتاب و (المفكرون) الذين يكتبون باللغة العربية من أهل التبعية، والتغريب، والشعوبية. وهذا واضح فى الدعوة إلى العامية التى بدأها ولكوكس، وويلمور، وغيرهما، ثم تابعهما سلامة موسى، وأحمد لطفى السيد، فى الدعوة إلى الإقليميات، والقوميات الضيقة كالفينيقية، والفرعونية ، بدأها فمبرى، وكرومز، وتابعهما طه حسين، ولطفى السيد، وغيرهما .

٢-يعمل المستشرقون على إخضاع النصوص للفكرة التى يفرضونها حسب أهوائهم ، والتحكم فيما يرفضونه، أو يقبلونه من النصوص ، وكثيرا ما يحرفون النص تحريفا مقصودا، ويقعون فى سوء الفهم ـ وعن عمد أحيانا ـ فى معنى النص حين لا يجدون مجالا للتحريف .

٣-يتحكم المستشرقون فى المصادر التى يختارونها، فهم ينقلون من كتب الأدب ما يحكمون به فى تاريخ الحديث النبوى، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به فى تاريخ الفقه، ويصححون ما ينقله الدميرى فى كتابه (الحيوان)، ويكذبون ما يرويه الإمام

---

(١) الإسلام فى وجه التغريب ص ٣٦٣ .

مالك فى (الموطأ) .

٤-يجمع المستشرقون الشبهات المختلفة، ويؤلفون بينها لإعطائها صورة كاملة، مثال ذلك : ما قام به المستشرق الألمانى ولهلم هور نباخ (الأستاذ فى جامعة بون بألمانيا) من جمع قطع، ونتف، وشذرات من كتاب (الإصابة) للحافظ ابن حجر، ثم ينشرها على أنها كتاب (الردة) لابن حجر الذى ألفه أبو زيد ابن الفرات المتوفى عام ٢٣٧ هـ وهو فارسى الأصل، وقد ضاع هذا الكتاب، فأشار ابن حجر إليه فى بعض المواضع، فما كان من المستشرق ولهلم إلا أن جمع هذه القطع على أنها تراجم لأشخاص ارتدوا عن الإسلام، ولا يقوم بمثل هذا العمل إلا مغرض صاحب هوى؛ لأنه يخالف البحث العلمى السليم.

وشبيه بهذا ما أورده المستشرقون من الزعم بأن العرب كانوا قبل البعثة النبوية على حضارة ونهضة ، وأن دور النبى ﷺ لم يزد على أنه نهض بهم فنهضوا ، مع أن الحقيقة الواضحة أن العرب فى جاهليتهم كانوا قبائل متفرقة متصارعة ، وأن الإسلام هو الذى وحدهم فى أمة واحدة ، ودفعهم إلى آفاق النهوض والتوسع : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٣]، ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾[آل عمران: ١٠٣].

٥-وقد حرص المستشرقون على التنويه بشأن «القرامطة » وإظهارهم بمظهر طلاب العدل والإصلاح ، وهم الذين عجزوا عن أن يحققوا أى منهج يمكن أن يوصفوا به على أنهم دعاة حق حين امتلكوا زمام الحكم فى القرن الرابع الهجرى ، بل انكشف باطلهم وزيفهم ، وظهرت حقيقتهم، صنائع لليهود انقضوا على الدولة الإسلامية بالتآمر والتعاون مع أعداء المسلمين وخصومهم .

٦-وعمل المستشرقون على إحياء التراث الباطنى المجوسى والغنوصى القديم

مستهدفين تحطيم أصالة الفكر الإسلامى، ويبدو هذا واضحا فى تركيزهم على إحياء كل المخطوطات التى تحمل هذه السموم ، وخاصة ما يتصل بالالحاد والإباحية ، وما يتصل بوحدة الوجود والحلول والاتحاد ، والمجون ، أمثال شعر بشار بن برد ، وأبى نواس ، وكتب الحلاج وابن عربى ، وابن سبعين ، وكتب غلاة الرافضة، والإسماعلية، والفاطميين .

٧- ولا ريب أن أخطر آثار الاستشراق هو اعتبار كتب المستشرقين وبحوثهم مراجع أساسية فى التاريخ واللغة والسيرة والفقه والعقائد وغير ذلك ، وخاصة فى الجامعات والمعاهد العالية أو فى دراسات المبعوثين إلى الجامعات الغربية فى أوربا وأمريكا ، الذين يقعون دائما تحت سيطرة الاستشراق والأساتذة اليهود والنصارى المتعصبين ، ثم يعودون إلى بلادهم فيحتلون مناصب التوجيه الثقافى والتعليمى ويرفضون ما تلقوه من الغرب من سموم باسم التجديد وحرية البحث .

وقد عملوا على نشر الموسوعات (دوائر المعارف) والقواميس لتكون مراجع سهلة للباحثين ، وملؤوها بالسموم والشبهات مثل :

دائرة المعارف الإسلامية .

المنجد فى اللغة والعلوم والآداب .

الموسوعة العربية الميسرة .

ولهذا ينبغى على من يود الرجوع إلى هذه المصادر أن يكون على حذر تام ، وأن يتنبه لما بين سطورها من مغالطات، أو تشويه، أو تحريف فى النقل ، على أن روح مؤلفيها فى الحقد على الإسلام لا تخفى على المطالع الحصيف .

نماذج من أبحاث المستشرقين :

١ -يتابع يوسف شاخت أستاذه جولد تسيهر (وهما مستشرقان يهوديان) فى الغض من شأن الشريعة الإسلامية ، ويحاول الادعاء بأن الشريعة الإسلامية لا

تختلف عن أعراف الجاهلية ، وهو ادعاء باطل تصدى له كثير من الباحثين .

ومن أكاذيب (شخت) وأضاليله : الادعاء بأن الفكر الإغريقى فضلا على الفكر الإسلامى ، وقد أثبت علماء الغرب أنفسهم مثل (سيديو ، درابر ، وسارطون) وغيرهم أن الإسلام هو الذى أدخل إلى الغرب المنهج العلمى التجريبى ، وأن الحضارة العالمية المعاصرة مدينة للمسلمين بهذا المنهج الذى هو أساس الحضارة الإسلامية .

٢-أنكر برتلو أن تكون الكتب الكيمالية اللاتينية التى تحمل اسم جابر بن حيان هى كتب عربية الأصل كتبها عالم مسلم ، لمجرد أن أصولها العربية فقدت ، وقد تصدى لبرتلو علماء راسخون ردوا عليه خطأه ، بل اتهمه بعضهم بالجهل والتحيز ، وقال سارطون : إن أى شخص يعرف العربية لا يخطئ مطلقا فى اكتشاف أن هذه الكتب اللاتينية ترجمات لكتب عربية ، إذ تبدوا الأساليب العربية واضحة من الترجمة اللاتينية، سواء كانت لجابر أو لغيره .

٣-ويزعم سدرسكى أن جانبا مما ورد فى القرآن، أو التفاسير والسير من الأخبار يرجع إلى الإجادة اليهودية، والتوراة، والأناجيل، وقد بين الدكتور بشر فارس فساد هذا الرأى وقال : إن بين النصوص الإسلامية، والنصوص اليهودية، والمسيحية مسافات ، وإن اتفق بعضها أو تقارب .

٤-وحاول نلينو أن ينفى حقيقة أن قريشا كانت أفصح العرب ، وله فى ذلك مغالطات واسعة ترمى إلى التشكيك فى هذه الحقيقة ، ويقول : إن تفضيل لغة قريش لم يكن مصدره سوى حب العرب للرسول .

٥-وزعم لويس شيخو اليسوعى أن معظم شعراء الجاهلية، وصدر الإسلام كانوا نصارى ، وأن الغسانيين كانوا نصارى ، وهو قول لا يسلم به المطلعون على أخبار العرب فى عهد الجاهلية ؛ لأن من الغساسنة من كان على الوثنية، ومنهم من

دان باليهودية ، وطائفة كانت تدين بالنصرانية ، وممن عدهم نصارى من الشعراء : الأخنس بن شهاب ، وامرؤ القيس ، وأمية بن أبى الصلت ، والسموأل .

وهكذا جرت بحوث المستشرقين وراء الشبهات حول القرآن الكريم ولغته، والحديث الشريف، والتشريع الإسلامى ، ولا يتسع المقام للتوسع فى ضرب الأمثال [1].

المستشرقون المعتدلون :

لا نكران أن طائفة من المستشرقين اتسموا بالاعتدال والإنصاف ، على تفاوت فيما بينهم ، فمنهم من أخطأ وأصاب ، ومنهم من انتهى به البحث الحر النزيه إلى الإيمان والإسلام ، ويعتبر من الفريق الأول : (رينان) الذى انتهى به بحثه عن المسيح عليه السلام إلى إثبات أنه لم يكن إلها، ولا ابن إله ، وإنما هو إنسان يمتاز بالخلق السامى، والروح الكريمة، وأن السير العربية للنبى محمد ـ ﷺ ـ كسيرة ابن هشام لها ميزة تاريخية أكبر من الأناجيل المتداولة بين النصارى.

ومنهم : (كارلايل) الذى عد (محمداً) ﷺ فى الأبطال ، وخصه بصفحات كثيرة من كتابه (الأبطال) يقول فيه : «من العار أن يصغى أى إنسان متمدين من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين : إن دين الإسلام كذب ، وأن محمدا لم يكن على حق ، فالرسالة التى دعا إليها هذا النبى ظلت سراجا منيرا أربعة عشر قرنا من الزمان لملايين كثيرة من الناس ، وما الرسالة التى أداها محمد ﷺ إلا الصدق والحق ، وما كلمته إلا صوت حق صادق صادر من العالم المجهول ، وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع ، ذلك أمر الله ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ومنهم: (تولستوى) أكبر كتاب روسيا ، فإنه لما رأى الحملة الظالمة على

---

(١) راجع : (دفاع عن العقيدة والشريعة) للشيخ محمد الغزالى ، (الإسلام فى وجه التغريب : مخططات الاستشراق والتبشير) للأستاذ أنور الجندى .

الإسلام ورسوله كتب رأيه معربا عن الإعجاب بالإسلام ، وتحدث عن المسيحية ، فأنكر على المسيحين اعتقادهم بألوهية المسيح ،وخلص إلى أن بولس لم يفهم تعاليم المسيح، بل طمسها ، والكنيسة زادت تعاليم المسيح فى العقيدة غموضا ، ويقول : إن المسيحيين واليهود والمسلمين يعتقد جميعهم بالوحى الإلهى ، فالمسلمون يعتقدون نبوة موسى وعيسى ولكنهم يعتقدون كما أعتقد بأنه دخل التحريف والتشويه على كتب الديانتين، وهم يعتقدون بأن محمداً خاتم الأنبياء ، وأنه أوضح فى القرآن تعليم موسى وعيسى كما قالاها دون زيادة ولا نقص.

وينتهى بالحديث عن رسول الله ﷺ حديث الإكبار والتعظيم ، وكان مما قاله تولستوى: «لا ريب أن هذا النبى من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ، ويكفيه فخرا أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تجنح للسلام، وتكف عن سفك الدماء ، وتقديم الضحايا ، ويكفيه فخرا أنه فتح طريق الرقى والتقدم ، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أُولىَ قوة وحكمة وعلما ، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال » ، وقد كان جزاؤه على كلمة الحق التى قالها أن حرمه البابا من الرحمة [1].

ومن المستشرقين الذين انتهى بهم البحث عن الحق إلى الإسلام اللورد هيدلى ، واتيين دينيه (ناصر الدين) والشاعر الألمانى الكبير جوته ، والدكتور جرينييه الذى كان عضوا فى مجلس النواب الفرنسى ، وقد سئل عن سبب إسلامه فقال : «إنى تتبعت كل الآيات القرآنية التى لها ارتباط بالعلوم الطبية: والصحية، والطبيعية والتى درستها من صغرى، وأعلمها جيدا ، فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة ، فأسلمت؛ لأنى تيقنت أن محمدا ﷺ أتى بالحق الصراح من قبل ألف سنة ، ومن قبل أن يكون له معلم أو مدرس من البشر ، ولو أن كل صاحب فن من الفنون ، أو علم من العلوم قارن كلَ الآيات القرآنية المرتبطة

(١) (التبشير والاستشراق : أحقاد وحملات) للمستشار محمد عزت إسماعيل الطهطاوى ص ٥٩ - ٦٢ .

بما تعلم جيدا كما قارنت أيضا، لأسلم بلا شك إن كان عاقلا خاليا من الأغراض [1].

وصدق الله العظيم ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣].

ثالثا : التبشير

أيقن أعداء الإسلام أنه لا سبيل إليه، وعقيدته حية فى قلوب المسلمين، فكان بداية التبشير مع نهاية الحروب الصليبية فشلا فى مهمتها ، وهو ما يصرح به « ملخص تاريخ التبشير » [2].

ويقول القسيس المبشر زويمر : إن جزيرة العرب التى هى مهد الإسلام لم تزل نذير خطر للمسحية [3]، ويكمل وليم جيفورد بالكراف المعنى فيقول : متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب ، يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة التى لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه [4].

واتخذ التبشير لدعوة المسلمين أساليب عديدة ، أظهرها لنا :

أ-المدارس المختلفة التى فتحت فى أرجاء العالم الإسلامى ، ولم تنج منها حتى عاصمة الخلاف الإسلامية نفسها [5] وبأشرت تلك المدارس التأثير على الطفولة البرئية

---

(١) المرجع السابق ص ٦٧ و (أوربا والإسلام) للدكتور عبد الحليم محمود .

(٢) كتاب ملخص التبشير لأدوين بلس ، أشار إليه أ . ل شاتليه .
نقلها إلى العربية محب الدين الخطيب وساعد اليافى تحت عنوان : الغارة على العالم الإسلامى .

(٣) قالها زويمر فى مؤتمر لكنو بالهند سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١م) وكان هو رئيس المؤتمر لماله فى التبشير من سجل حافل – المرجع السابق ص ١٠٢ .

(٤) قالها وليم جيفورد فى مؤتمر القاهرة للتبشير المنعقدة سنة ١٣٢٤هـ ١٩٠١ م ، فى منزل أحمد عرابى الذى صادره الإنجليز بعد ثورته . .

(٥) فى مؤتمر لكنو للتبشير الذى تقدمت الإشارة إليه قدم القسيس ترد بريدج تقريرا عن نشاط التبشير وخص فيه دولة الخلافة العثمانية بنصيب أوفر فقال : =

والشبيبة الغضة من أبناء المسلمين ، وكانت لها نتائج إيجابية محدودة ، لكنها إن لم تمح فى المجموع عقائد التلاميذ ، فيكفى أنها بذرت فيها بذور الشك أو الانحراف [1] . ولا تزال من آثار تلك المدارس : الجامعة الأمريكية فى مصر ، والجامعة الأمريكية فى بيروت ، الأمر الذى لا ينكره رجالات الغرب أنفسهم .

ويلحق بهذه الوسيلة تغريب التعليم أو علمانيته ، وهو ما فعلته انجلترا فى مصر والهند، وما سوف نعرض له بمشئة الله عند الكلام عن وسائل التبشير الحديثة .

ب-ومن أخطر هذه الوسائل البعثات إلى الدول المسيحية الغربية ، وأول مثل لأثر البعثات : ما حدث لرفاعة الطهطاوى الذى أقام فى باريس من سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦م) إلى سنة ١٢٤٧ هـ (١٨٣١م) ، فقد عاد ذلك الشيخ بغير العقل الذى ذهب به .

اختلت موازين الشيخ، فعاد يتحدث عن الرقص الذى رآه فى باريس بأنه نوع من العياقة والشلبنة (أى الأناقة والفتوة) لا الفسق، الرقص وتلاصق الأجساد ليس فسقا !!

= عن الأعمال المدرسية : إن فى استطاعة المسلمين التردد على مدارس وكليات التبشير وبين جدران الكلية الإنجليزية فى بيروت (الجامعة الأمريكية ، وكانت تسمى الكلية السورية الإنجيلية) ١٠٤ من المسلمين ، وفى كلية الأستانة (واحسرتاه) ٥٠ وفى كلية المبشرين فى كدك باشا فى الأستانة أيضا ٨٠ ، ومنذ بضع سنين صدر إذن خفى !! بجواز التردد على الكلية الأولى والثانية وعن التأليف قال : كان طبع كتب التبشير مباحا فى تركيا منذمدة طويلة (!!) ثم أشار إلى صعوبات التوزيع .

وعن الأعمال الطبية والخيرية قال : إنها منتشرة جدا فى البلاد العثمانية .

وعن الأعمال النسائية قال : إن الحكومة سمحت (...) عقب إعلان القانون الأساسى لخمس فتيات مسلمات أن يتعلمن فى كلية البنات الأمريكية ليتهيأ لإدارة الأمور فى مدارس الحكومة للبنات ، كما أن عددا قليلا من الفتيات المسلمات يتردد على مدارس إرساليات التبشير .

(١) فى نفس المؤتمر قال استرردكروفورد : أن المسلمين يقتبسون من حيث لا يشعرون شطرا من المدينة النصرانية ويدخلونه فى ارتقائهم الإجتماعى ، وما دامت الشعوب الإسلامية تتدرج إلى غايات ونزعات ذات علاقة بالإنجيل، فإن الاستعداد لاقتباس النصرانية يتولد فيها عن غير قصد منها ، ثم ختم تقريره بقوله : لقد أزف الوقت لارتقاء العالم الإسلامى وسيدخل الإسلام فى شكل جديد من الحياة والعقيدة ، ولكن هذا الإسلام الجديد سينزوى ويتلاشى بالنصرانية (ص ٧٢ ، ٧٣ من المرجع السابق) .

ورسول الله ﷺ يقول : «لكل بنى آدم حظ من الزنا : فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، واليدان تزنيان وزناهما البطش ، والرجلان تزنيان وزناهما المشى ، والفم يزنى وزناه القبل، والقلب يهوى ويتمنى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه »[1] صدق رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وكذب الشيخ الطهطاوى .

وتحدث عن المشاعر الوطنية ليحلها محل المشاعر الدينية وراح يثير الجاهلية القديمة، فيتحدث عن مصر الفرعونية ، وينسى مصر الإسلامية وأعجب الطهطاوى بالحرية لكنه لم يفهمها الفهم الإسلامى الذى تتحقق به عبودية المسلم لله وحده ، ويتحقق تحرره من كل عبودية لسوى الله ، لكنه فهمها الفهم الغربى الذى قد يؤدى إلى التحرر من الأخلاق ومن الدين نفسه!.

وقس على الشيخ رفاعة[2] من ذهبوا بعده .

جـ ـ ثم تأتى سائر وسائل التبشير، فتح المستشفيات ، وبعث الإرساليات الطبية ، التى يقرر كثير من المبشرين فى مؤتمراتهم وكتاباتهم أنها أدت إلى نتائج أسرع وأفضل من عمل القسس التبشيرية[3].

دـ ثم المحاضرات والندوات ، والكتب والمجلات والصحف والنشرات .. إلخ .

---

(١) مسند أحمد ٢ ص ٣٤٣، وسنده صحيح ، وله روايات أخرى كثيرة بألفاظ مختلفة ، والمعنى واحد .

(٢) راجع تحليلا رائعا للأستاذ الدكتور محمد محمد حسين (أستاذ الأدب الحديث بجامعة الإسكندرية) فى كتابه : الإسلام والحضارة الغربية ، نشر دار الفتح ط ٢ / ١٣٩٣هـ . والكتاب عبارة عن محاضرتين ألقاهما بالكويت سنة ١٣٨٥ وهو يتناول أثر التغريب ، وله فى نفس الخط مؤلف آخر تحت عنوان «حصوننا مهددة من الداخل »ـ مجموعة مقالات نشرها فى مجلة الأزهر.

(٣) يقول الطبيب بول هاريسون فى كتابه (الطبيب فى بلاد العرب) : لقد وجدنا فى بلاد العرب لنجعل رجالها ونساءها نصارى – إبراهيم خليل أحمد – المستشرقون والمبشرون فى العالم العربى والإسلامى من مكتبة الوعى العربى بالقاهرة ١٣٨٤ هـ ويذكر الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه : «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية » أن الأفغانيين الذين خلعوا ملكهم أمان الله خان أنه سمح لزوجته أن تخرج سافرة ، قبلوا بعد ذلك أن يلغوا الحجاب وتم ذلك عن طريق القابلات ودور الولادة الطبية التى أنشأها المبشرون.

مؤتمرات التبشير :

أما مؤتمرات التبشير فقد تعددت، نذكر منها :

١ـ مؤتمر القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦م) المنعقد فى منزل زعيم الثورة العرابية المسلم فى باب اللوق تحت سمع الحكومة وبصرها !

٢ـ مؤتمر أدنبرج سنة ١٣٢٨ هـ (١٩١٠م) فى إنجلترا .

٣ـ مؤتمر لكنؤ سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١م) بالهند .

٤ـ مؤتمر القدس سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤م) .

٥ـ مؤتمر القدس سنة ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م) .

٦ـ مؤتمر القدس سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦١م) .

وما بلغنا عنها إلا القليل ، وأشهره ما نشرته مجلة : (العالم الإسلامى) .

ولا نعتقد أن ما نشر هو كل ما قيل وحدث.

ومع ذلك ، فإننا نشير إلى نماذج من المؤتمرين الأول والثالث تبعا لما بلغنا عنهما.

فى مؤتمر القاهرة - المنعقد فى بيت الزعيم المصرى المسلم أحمد عرابى :

تناول المؤتمر وسائل تبشير المسلمين بالنصرانية فى كتاب خاص كتب عليه : نشرة خاصة ؛ ليكون قاصرا على فئة من المبشرين – وهو من إعداد القسيس الأمريكى فليمنج.

ثم تعرض المؤتمر للأزهر : فنعى أن باب التعليم مفتوح للجميع ، خصوصا ، وأن أوقاف الأزهر الكثيرة تساعد على التعليم فيه مجانا [1].

وطالب سكرتير المؤتمر فى مواجهة ذلك بإنشاء معهد مسيحى لتنصير الممالك

(١) صادرتها الحكومة الثورية فى مصر فى عهد الرئيس السابق جمال عبد الناصر.

obeikandl.com

الإسلامية [1] (قيل: إن أساس تكوين الجامعة الأمريكية فى مصر كان تنفيذا لتلك الوصية).

ثم عرض المؤتمر لخريطة تنصير العالم الإسلامى فى هذا العصر .

وقدم القسيس زويمر «رئيس المؤتمر » بمعاونة بعض زملائه كتابا تحت عنوان العالم الإسلامى اليوم ، أشار إلى صلابة عقيدة المسلمين (وهو ما يقتضى الاشتداد فى حربها)، وقال ما نصه : «لم يسبق وجود عقيدة مبنية على التوحيد أعظم من عقيدة الدين الإسلامى الذى اقتحم قارتى آسيا، وإفريقيا، وبث فى مائتى مليون من البشر عقائده وشرائعه وتقاليده ، وأحكم عروة ارتباطهم باللغة العربية » .

ثم قدم القسيس زويمر بعض النصائح من بينها :

أ ـ وجوب إقناع المسلمين أن النصارى ليسوا أعداءهم .

ب ـ وأخطرها : يجب تبشير المسلمين بواسطة رسول من أنفسهم، ومن بين صفوفهم؛ لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها .

وأخيرا ، بشر المبشرين ألا يقنطوا، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين وإلى تحرير النساء [2].

وفى مؤتمر لكنؤ المنعقد فى الهند سنة ١٣٢٩هـ (١٩١١م) .

كانت مواده كثيرة أخطرها :

*النظر فى حركة الجامعة الإسلامية ومقاصدها وطرقها والتأليف بينها وبين تنصير المسلمين .

---

(١) جاء فى مجلة المجتمع ، جمادى الأخر سنة ١٣٩٧ هـ أن البابا شنودة قد اتفق مع الرئيس الأمريكى كارتر على إنشاء جامعة نصرانية فى مصر ، وأن الرئيس كارتر فى اجتماعه مع الرئيس السادات طلب منه ذلك ، فوافق الأخير بشرط أن يكون تمويل الجامعة من الخارج.

(٢) الغارة على العالم الإسلامى - المرجع السابق ص ٢٤ وص ٣٢.

*الارتقاء الاجتماعى والنفسى بين النساء المسلمات (يلاحظ اختيار الألفاظ المهذبة لتغطية المعنى المقصود ، فإن المبشرين المسيحين لا يهمهم فى شىء ارتقاء النساء المسلمات).

وكان أخطرها حديث .. حديث زويمر أشار إلى أن عبد الحميد (خليفة المسلمين) سجين فى سلانيك ، أشار إلى أنه لم يبق غير ٢٧.١٢٨.٨٠٠ مسلما تحت سلطة الحكومات الإسلامية ، وانتقلت السلطة على الباقين من الخلافة الإسلامية إلى أيدى كل من انجلترا وفرنسا وروسيا وهولندا . أشار إلى أن عدد المسلمين الذين تحت سلطة الدول النصرانية سيزداد كثيرا عقب انقلابات قريبة الحصول ؟

وكان من بين قرارات المؤتمر :

«من الضرورى العاجل تأسيس مدرسة فى مصر خاصة بالتبشير » .

«دخول النساء فى أعمال التبشير لتنصير النساء المسلمات وأولادهن [١] .

وهم الآن لا يدعون المسلمين إلى المسيحية بل يحاولون تشويه الإسلام وإضعاف قيمه[٢].

رابعا : تقطيع أوصال دولة الخلافة

برغم كل ما أحدثه التبشير من تخريب، لم يتخل الغرب المسيحى عن العنف تأييدا لهذا التخريب العقلى والقلبى بالسند العسكرى والسياسى، وإسهاما بهذه

(١) ص ٦١ - ٨٣ من المرجع السابق : الغارة على العالم الإسلامى.

(٢) فى مؤتمر القدس قال زويمر كلاما خطيرا إذ رسم خط التبشير بعد ذلك : ولكن مهمة التبشير التى ندبتكم دول المسيحة للقيام بها فى البلاد المحمدية ليست فى إدخال المسلمين فى المسيحية فإن هذا هداية لهم وتكريم (!) وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله، وفى نهاية كلمته قال : إنكم أعددتم نشءًا فى ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله ، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه فى المسيحية ، وبالتالى جاء النشء الإسلامى طبقا لما أراده له الاستعمار المسيحى لا يهتم بالعظائم ، ويحب الراحة والكسل ، ولا يعرف همه من دنياه إلا فى الشهوات .

الوسيلة فى تحقيق نفس الغاية .

واتفقت الدولتان العظيمتان فى ذلك الحين على تقطيع أوصال دولة الخلافة ، وتوزيع الأسلاب بينهما .

ففى منتصف القرن التاسع عشر سنة ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧م) ، ثم استيلاء إنجلترا على الهند ، وانتقلت السلطة من شركة الهند الشرقية إلى التاج البريطانى ، وزالت بذلك إحدى الدول الإسلامية الكبرى التى قامت فى مستهل القرن السادس عشر (دولة المغول فى الهند، أو الدولة التيمورية نسبة إلى مؤسسها تيمورلنك) .

وفى نفس السنة ، كانت جيوش فرنسا تستكمل احتلال صحراء الإسلام الغربية التى بدأت باحتلال الجزائر سنة ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م) .

وبعد ذلك بقليل كان اقتطاع إنجلترا لدرة من دور الخلافة ، كان احتلال مصر المسلمة سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ م) .

ثم كان اقتطاع سورية ولبنان واحتلال فرنسا لهما بعد الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠م) ، ومع بوارج القتال كانت بارجة تحمل « مومسات » ، ولما سئل القائد فى دهشه أجابه العالم ببواطن الأمور : إن تلك البوارج قد يزول أثرها ،أما هذه البارجة فإن أثرها لن يزول . وقبل ذلك كانت جيوش إيطاليا تخترق البحر تجاه أراضى ليبيا ترفع نشيدا فاشستيا مجرما يندد بالقرآن ، ويهزأ بالإسلام ، ويتوعد أمته بالسحق والفناء ، جاء فيه: يا أماه ، أتمى صلاتك ولا تبكى، بل اضحكى وتأملى ، ألا تعلمين أن إيطاليا تدعونى وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسروا ، لأبذل دمى لسحق الأمة الملعونة ، ولأحارب الديانة الإسلامية التى تجيز

البنات الأبكار للسلطان ، سأقاتل بكل قوتى لأمحو القرآن »[1] .

وهكذا انتقل تصور المسألة الشرقية من كيف يوقف الغرب زحف دولة الإسلام إلى داخله ، إلى كيف يقطع الغرب أوصال دولة الخلافة الإسلامية يوزعها فيما بينه ، ثم يجهز على الرجل المريض .

وتأتى بعد ذلك - واستكمالا للمخطط الأثيم - القضاء على الخلافة نفسها ، وقد نفذوا فيها توصية أحد مؤتمراتهم ألا يقطع الشجرة إلا أحد أعضائها ، لكن القضاء على الخلافة سبقته بعض الخطوات ، أهمها فصل الدين عن الدولة ، وهو موضوع المبحث الثانى من هذا الفصل .

(١) وقد جاء ذلك النشيد فى نداء لمجاهد طرابلسى، وجهه إلى المسلمين ، نشرته مجلة الرابطة الشرقية ، السنة الثالثة – العدد الثانى ٢٥ جمادى الآخرة ١٣٤٩ / ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٠ .

obeikandl.com

المبحث الثانى

مرحلة إسقاط الخلافة الإسلامية

لابد أن تسقط الخلافة الإسلامية قبل أن تقوم «دولة »إسرائيل .

ذلك ما تنبأ به نيلوس بعد أن اطلع على برتوكولات حكماء صهيون ، وذلك منذ سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١م)[١]، وذلك يؤكده طلب قرصو زعيم اليهود فى سالونيك إلى السلطان عبد الحميد إعطاء فلسطين لهم ليتخذوها وطنا قوميا ، فلما رفض الخليفة توعده الزعيم اليهودى [٢]، وكان من بين من سلمه قرار العزل بعد ذلك اثنان من زعماء اليهود [٣].

ولابد أن يقطع الشجرة أحد أعضائها كما أوصى بذلك أحد مؤتمرات التبشير ، لكن قبل أن تقطع الشجرة التى أظلت بلاد الإسلام منذ عهد النبوة، وقبل أن يقضى على البطل الإسلامى السلطان عبد الحميد ، كان ثمة تمهيد ، كان بث فكرة فصل الدين عن الدولة .

أولا : فصل الدين عن الدولة :

أشار الكاتب الأمريكى وليام غاى كار[٤]إلى أن فكرة فصل الدين عن الدولة كانت من عمل اليهود، وبصرف النظر عما قاله وليام غاى كار، فإن الواضح فى الشرق الإسلامى أن الفكرة كانت غريبة عنه، ومن ثم فإن الأيدى الأجنبية كانت

---

(١) الخطر اليهودى .
(٢) نفس المرجع السابق .
(٣) د . على جريشة فى المشروعية الإسلامية العليا ص ٢٣١ .
(٤) فى كتابه : أحجار على رقعة الشطرنج.

وراءها ، سواء كانت أيدى الصليبية المتعصبة أو اليهودية الحاقدة ، ذلك أن فقهنا الإسلامى ومن بعده فكرنا الإسلامى ، لم يعرف مثل هذه الفكرة ولم يتصورها ، بل إنه على العكس من ذلك يعرف أن قرآنه يحرم تجزئة الكتاب ، ويعتبر ذلك كفرا، وفتنة ، وجاهلية .

ويعرف أن الوظيفة الأولى لهذا القرآن أن يحكم، لا أن يوضع على الأرفف والمناضد أو تحشى به الجيوب والتمائم، أو تغنى به وتتسلى بعض العمائم.

﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الأعراف :٢].

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ [الجاثية:١٨].

﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [المائدة:٤٨].

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة:٤٩].

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ ﴾ [المائدة].

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤].

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة:٤٥].

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة:٤٧].

فالإسلام دين يحكم كل شىء

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل :٨٩] .

والدولة فيه قسم لا قسيم .

فكما ينظم شؤون الفرد وينظم شؤون الأسرة ، ينظم شؤون الدولة ، وينظم شؤون المجتمع الدولى : . ذلك فقه الإسلام وفكره ، الدولة جزء من الدين ، قسم له لا قسيم .

تاريخ الإسلام لم يعرف هذه التفرقة :

وليس فى أحداثه ما يبررها

فلئن عرفها الغرب كرد فعل لاضطهاد الكنيسة للعلم والعلماء وافتئاتها على عقائد الناس، وعقولهم حتى سولت لنفسها أن تصدر صكوك الغفران، وقرارات الحرمان عن هوى وتحكم ، إذا كان ذلك فإن شرقنا الإسلامى لم يعرف اضطهاد العلم والعلماء ، بل حفظ لهم الإسلام، وحفظت لهم أمته أكرم مكانة وأعز منزلة ، وكيف لا .. ؟ وهم ورثة محمد ﷺ على دينه وشرعه وميراثه ؟ .

ومن ثم فلم يكن هناك محل ـ لا من الناحية الفكرية ، ولا من الناحية التاريخية ـ لبث فكرة فصل الدين عن الدولة .

لكن الأمر كان يدبر بليل .

واعتنق حزب الاتحاد والترقى فى تركيا الفكرة وعمل على ترويجها .

ثم عمل عن طريق ضباطه على عزل عبد الحميد ، ذلك الخليفة الذى رفض أن يعطى فلسطين وطنا لليهود وبصق فى وجه زعيمهم قرصو .

وصارت الحكومة المدنية فى أنقرة هى التى تحكم، والخليفة فى الأستانة بغير سلطان، تطبيقا لفصل الدين عن الدولة .

ثانيا : نشر القومية فى مواجهة الخلافة :

كانت اليد الخفية التى تعمل على تقويض الخلافة ـ ببث فكرة فصل الدين عن

الدولة- تعمل من ناحية أخرى عن طريق القومية .

إثارة القومية الطورانية داخل دولة الخلافة (تركيا) .

وإثارة القومية العربية داخل الولايات التابعة للخلافة .

والأولى تعهدها حزب الاتحاد والترقى، وحزب تركيا الفتاة .

والثانية انزلق إليها الشريف حسين ، ظنا منه أنها الوجه الآخر للإسلام [1].

واعتقادا منه فى حسن نوايا الجاسوس (لورانس) ومن ورائه ماكماهون حتى انتهى الأمر إلى أن تحارب جيوش القومية العربية جيوش الخلافة الإسلامية ، تعضدها الجيوش الإنجليزية التى سارت تحت راية فيصل بن الشريف حسين لتخرج سوريا لاستقبالها استقبال الفاتحين .

ثالثا : إسقاط الخلافة الإسلامية :

ولم يكن عبثا ..

ولم يكن تدبير مصطفى كمال أتاتورك ولا حزب الاتحاد والترقى .

وما كان هؤلاء إلا «النعل : الذى تلبسه القدم الغليظة الكارهة الكريهة !

وإلا ففيم توقع نيلوس منذ ١٣١٩ هـ (١٩٠١م) .. ؟

وفيم قول مؤتمر التبشير : إن الشجرة لابد أن يقطعها أحد أعضائها ؟

---

(١) بدأت الدعوة إلى القومية العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وتألفت فى بيروت جمعية سرية لهذا الغرض فى سنة ١٢٩٢ هـ ، ١٨٧٥ م راجع تفصيلا لذلك بحثا طيبا عن عوامل ضعف المسلمين للأستاذ سميح عاطف الزين – دار الكتاب اللبنانى .

ونحن نحسن الظن بالشريف حسين على ما يبدو من رسائله المتبادلة بينه وبين الإنجليز لكن يبقى حسابه على الله فى ظل قول الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ [النحل:٨٩] وكيف نسى الشريف ما فعلته إنجلترا بالمسلمين، تعست كراسى الحكم التى تنسى المسلم دينه، وشرفه، وكرامته .

وفيم تهديد الزعيم اليهودى قرصو للسلطان عبد الحميد بعد أن رفض إعطاء فلسطين لليهود ..؟

فيم ذلك كله .. وفيم قبله فكرة فصل الدين عن الدولة، ومصدرها المباشر الصليبية ومصدرها غير المباشر الصهيونية ، كما يقرر وليام غاى كار .. ؟

وفيم قبله نشر القومية العربية على يد لورانس الجاسوس الإنجليزى ..

ومن جرهم من أذقانهم وراء قدمه ؟

وفيم شروط كيرزون الأربعة لاستقلال تركيا وتسليمها للكماليين وهى :

١-قطع كل صلة بالإسلام .

٢-إلغاء الخلافة .

٣-إخراج أنصار الخلافة والإسلام من البلاد .

٤- اتخاذ دستور علمانى بدلا من الدستور القديم [١].

فيم ذلك كله .. ؟

وإذا صح أن الخلافة كانت أشبه بالرجل المريض - وهم أول من أمرضوها - فهل يصح المريض بالعلاج ؟ ..

أم يعالج المر يض بالقضاء عليه وقتله؟

ماذا فعلوا بعد أن أجهزوا على الرجل المريض بخسة ونذالة هل استبدلوا نظاما خيرا منه ؟ ..

---

(١)يشير إليها الزميل الدكتور عبد المعطى بيومى نقلا عن الأستاذ أنور الجندى فى كتابه : العلم الإسلامى - الاستعمار السياسى والثقافى والاجتماعى ص ٤٦ ، ٤٧.

ويؤكد النية إزاء الخلافة الإسلامية، والقصد من وراء إسقاطها ما جاء فى كتاب مائة مشروع لتقسيم تركيا، تأليف المسيو جوفار الأمانى - ملخصا فى كتاب حاضر العالم الإسلامى - المرجع السابق - وأقوال، رجال الدين فى أوربا ، وكتابهم ، وساستهم مجمعة على وجوب القضاء على الخلافة الإسلامية وتقسيم التركة بين ملوك أوربا .

وهل صاروا فى مصاف الدول العظمى ، بعد أن انسلخوا من إسلامهم .

إن تركيا ، وبعد مرور نصف قرن من إلغاء الخلافة فيها ، لا توضع فى الدرجة الثانية ولا الثالثة، ولا الرابعة بين دول العالم ، وكانت قبلها فى الدرجة الأولى ! .

أهذا هو الترقى ، يا حزب الترقى ؟

ولقد سبقت إلغاء الخلافة تمثيلية لا يزال يتكرر مثلها فى السنوات القريبة ، كان لابد من صنع البطل (الذى يقطع الشجرة)[1].

وبعد أن تغلغلت قوات اليونان والحلفاء داخل أراضى تركيا .

وبينما الخليفة حبيس الأستانة ، بل وجيوش إنجلترا ، وتتبدل الهزيمة نصرا وينخدع العالم الإسلامى المسكين «بالغازى العظيم ».

ثم يعلن بعدها إلغاء الخلافة الإسلامية .

ويعقبها سلسلة من الإجراءات تنتهى إلى سلخ تركيا من إسلامها ، وتحريم الأذان فيها ، وتحريم الكتابة بلغة القرآن العظيم !

ويقبل العالم الإسلامى على المصيبة !

ولكن ولات حين مناص ! فقد فات الأوان !

ويندب العالم الإسلامى خلافته وإسلامه :

يقول الشاعر أحمد شوقى :

يا أخت أندلس عليك سلام	هوت الخلافة عنك والإسلام
طوى الهلال عن السماء فليتها	طويت وعم العالمين ظلام
خفت الأذان فما عليك موحد	يسعى ولا الجمع الحسان تقام

(٢) راجع تحت عنوان : صناعة الزعيم ، فى كتاب «عندما يحكم الطغاة »للدكتور جريشة ، الناشر دار الاعتصام — مصر .

ويقول فى أبيات من قصيدة أخرى :

بكت الصلاة وتلك فتنة عابث ... بالشرع عربيد القضاء وقاح
أفتى خزعبلة وقال ضلالة ... وأتى بكفر فى البلاد بواح
ضجت عليك مآذن ومنابر ... وبكت عليك ممالك ونواحى
الهند والهة ومصر حزينة ... تبكى عليك بمدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس ... أمحا من الأرض الخلافة ماحى
حسب أتى طول الليالى دونه ... قد طاح بين عشية وصباح
وعلاقة فصمت عرى أسبابها ... كانت أبر علائق الأرواح
نظمت صفوف المسلمين وخطوهم ... فى كل غدوة جمعة ورواح

* * *

استغفر الخلاَّق لست بجاحد ... من كنت أدفع دونه وألاحى
أأقول من أحيا الجماعة ملحد؟ ... وأقول من رد الحقوق إباحى

* * *

فلتسمعن بكل أرض داعيا ... يدعو إلى الكذاب أو لسجاح
ولتشهدن بكل أرض فتنة ... فيها يباع الدين بيع سماح
يفتى على ذهب المعز وسيفه ... وهوى النفس وحقدها الملحاح

المبحث الثالث

مرحلة ما بعد إسقاط الخلافة الإسلامية

بات معلوما أن العالم الإسلامي بعد الإجهاز على الخلافة الإسلامية ، وما تبعها وما سبقها من تقطيع لأوصال العالم الإسلامي، وما صاحب ذلك من حملات تبشير واستشراق إن لم تنجح فى تنصير المسلمين بما يكافئ الجهود والأموال المبذولة، فإنها أفلحت فى بث الشكوك والوهن فى عقائد المسلمين وأفكارهم .

بات معلوما أن العالم الإسلامى صار كجسد مثخن بالجراح ، استرخى ، حتى يمن الله عليه بالعافية أو يتحقق أمل بعيد للصهيونية أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ومن ثم كان يكفى ما حدث ..

لكن الصليبيين ومن وراءهم - وعوا الدرس ، وهو ما صرح به (جب) من أن صحوة الإسلام تتم بسرعة ..

وخشى أعداء الإسلام هذه الصحوة !

فاتخذوا من الوسائل ما يضمن بقاء الجسد الممزق هامدا ، مثخنا بالجراح ، وكان لهم فى ذلك أكثر من سبيل ، أهمها :

التغيير السياسى، والاجتماعى فى العالم الإسلامى ، ولنعط كلا كلمة ، بما يسمح به المقام .

الفصل الثانى

التغيير السياسى والاجتماعى فى المنطقة الإسلامية

المبحث الأول

التغيير السياسى

منذ أتيح للغرب الصليبى أن يتسلط على الشرق الإسلامى ، أخذ يحدث التغيير السياسى اللازم ، لبقاء سيطرته أولا، ثم لتحقيق الهدف من هذه السيطرة ثانيا فكان :

احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٢٤٦هـ ١٨٣٠ م .

وتونس سنة ١٢٩٩ هـ ١٨٨١ م .

ومراكش سنة ١٣٣٠ هـ ١٩١٢م .

وللشام سنة ١٣٣٨ هـ ١٩٢٠ م .

وكان احتلال بريطانيا سنة ١٢٧٤ هـ ١٨٥٧ م للهند إيذانا بزوال إحدى الدول الإسلامية الكبرى التى قامت فى مستهل القرن السادس عشر .

واحتلالها لمصر سنة ١٣٠٠ هـ ١٨٨٢ م .

والعراق سنة ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م .

وفلسطين سنة ١٣٣٧ هـ ١٩١٨ م .

ولم يكن ذلك التوزيع وليد الصدفة ، فلقد كشف الاتفاق المنعقد بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٣٢٢ هـ ١٩٠٤ م عن جانب من سياسة تقطيع أوصال العالم الإسلامى .

وصحب ذلك التقسيم إثارة القوميات المختلفة كالقومية الطورانية فى تركيا، والقومية العربية فى البلاد العربية ، حتى اقتتل المسلمون تحت قيادة النصارى باسم

وقد صحب ذلك دعوة خبيثة إلى العلمانية ،بمعنى فصل الدين عن الدولة ، تبنتها جماعات كثيرة مشبوهة الصلات والأهداف من أمثال حزب الاتحاد والترقى فى تركيا الذى كانت من قياداته قيادات يهودية من يهود الدونمة .

وتبع ذلك ..

ما رسم له أعداء الإسلام من قبل ، حين عقدوا أكثر من مؤتمر للنظر فى المسألة الشرقية ، وقد كانت فى البداية تعنى رد الزحف الإسلامى الذى كانت تقوده تركيا على أوربا ، ثم لما توقف المد انتقل البحث إلى كيفية تقطيع أوصال الخلافة ، ثم القضاء على الخلافة بعد ذلك .

ومهما يكن من أمر الأخطاء التى وقع فيها سلاطين تركيا ، وفى مقدمتها أنها جعلت عضلاتها أقوى من عقلها ، ومهما يكن من أمر المظالم التى ارتكبها سلاطين تركيا ، وفى مقدمتها التفرقة الظالمة بين بنى الدين الواحد ، وتميز الأتراك على غيرهم من بنى الأوطان الأخرى .

مهما يكن من هذه وتلك – مما نسجله ونحذر منه – فلقد كانت الخلافة تظل المسلمين وتجمع شملهم ، وترهب عدو الله وعدوهم .

من أجل ذلك لم يكتف أعداء الإسلام بتقطيع أوصال دولة الخلافة ، بل جاوزوا ذلك إلى القضاء على الخلافة نفسها ، ومنع قيامها بعد ذلك فى أى قطر أو أى وطن آخر !

وسواء كان ما ارتكبه مصطفى كمال - الشهير بأتاتورك - كان بحسن نية ، كرد فعل لأحداث ذلك الحين التى خطط لها أعداء الإسلام بما يدفع أتاتورك إلى إلغاء الخلافة ، أو كان بسوء نية أو استجابة للتخطيط اليهودى - الصليبى ، الذى تبدى فيما ذكره كاتب روسى سنة ١٣١٩ هـ ١٩٠١ م بعدما طالع بروتوكولات حكماء صهيون ، من أنه لابد للأفعى اليهودية من أن تمر بالقسطنطينية لتصل إلى

فلسطين[1]، وما أعقب ذلك من محاولة زعيم يهودى رشوة السلطان عبد الحميد لمنح فلسطين وطنا قوميا لليهود ، وبصق الخليفة المسلم فى وجهه ، ثم توعد اليهود للخليفة ، وخلع الخليفة بعد ذلك بقرار حمله ثلاثة، اثنان منهم من اليهود ، ثم ما أعقب ذلك من إعلان وعد بلفور سنة ١٣٣٦ هـ ١٩١٧ م من جانب وزير الخارجية البريطانية بمنح فلسطين وطنا قوميا لليهود ، وما تم من هجرة لليهود فى ظل ذلك الانتداب البريطانى ، وانسحاب بريطانيا سنة ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨م من فلسطين ليتمكن منها اليهود بعد ذلك ، واتفاق المعسكرين الشيوعى، والرأسمالى على الاعتراف بإسرائيل وتدعيمها ، الأمر الذى لا يزال حتى اليوم باديا ، فروسيا تمد إسرائيل بالقوة البشرية والقوة العقلية ، وأمريكا تمدها بالقوة العسكرية، والقوة التكنولوجية .

كل ذلك أو بعضه قد يثير أو يشير إلى أن خطوة أتاتورك بإلغاء الخلافة لم تكن عن حسن نية ابتغاء المصلحة الوطنية لتركيا - خاصة إذا أضيف إليها ما قيل عن شروط كيرزون لمنح تركيا الاستقلال ، ومن بينها إلغاء الخلافة الإسلامية .

نقول : سواء كانت جريمة أتاتورك بحسن نية، أو بسوء نية ، فلقد حققت لأعداء الإسلام ما يبغونه بنقض عرى الإسلام ، أولها الحكم ، وآخرها الصلاة .

وكان المفروض أن تقف الحملة الضارية على الإسلام والمسلمين عند حد تقطيع دولة الخلافة والقضاء عليها ، لكن الصليبيين وعوا من الإسلام درسا هاما عن الإسلام والمسلمين ، وهو ما صرح به أحدهم من أن صحوة الإسلام تتم بسرعة ، وما صرح به بعضهم من أن المسلمين أشد خطورة عليهم من اليهود والبلاشفة والشعوب الصفراء[2].

---

(١) هو الكاتب الروسى، سرجى نيلوس ، راجع:، الخطر اليهودى لمحمد خليفة .

(٢) كتبت إحدى المجلات الأمريكية تحت عنوان : (محمد يتهيأ للعودة) المسلمون رقدوا ٥٠٠ سنة ويتحركون الآن ويتوثبون للسلطان .

ومن هذه التصريحات ما قاله لورانس براون : كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودى، والخطر الأصفر، وبالخطر البلشفى ، إلا أننا لم نجد هذا التخوف كما تخيلناه ، لأننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا ، وعلى هذا يكون كل مضهد لهم عدونا الألد ، ثم رأينا البلاشفة حلفاء لنا أثناء الحرب الثانية ، أما الصفر (اليابان والصين) فإن هناك دولا ديمقراطية كبرى تتكفل بمقاومتها لكن الخطر الحقيقى : كان فى =

وبغض النظر عن مدى صحة ما قرره أولئك ، من خطر الإسلام والمسلمين عليهم، فإن هذا هو الذى شكل تفكيرهم ، وكان الباعث وراء تصرفاتهم بعد ذلك.

الأسلوب الجديد :

وفى منتصف القرن العشرين ، فى الخمسينيات على وجه التحديد قررت الولايات المتحدة الأمريكية أن ترث النفوذين البريطانى والفرنسى فى المنطقة لتحقق نفس الأهداف التى كان يحققها هذان النفوذان [1] .

لكن ، إن اتفقت الولايات المتحدة مع بريطانيا وفرنسا فى الاستراتيجية والأهداف ، فلقد اختلفت معهما فى التكتيك والأسلوب ، ومارست الولايات المتحدة فى مهارة ما يسمى بلعبة الأمم تحقيقا لأهدافها ، وكان أهم أساليبها فى ذلك الانقلابات العسكرية التى تصنع عن طريقها البطل أو الزعيم الذى تتعلق به آمال الأمة ، فيمتص بذلك ما يمور فى باطنها . وما كان يمكن أن يؤدى إلى ثورة فى غير صالحها وينحرف بهذه القوة الماردة داخل الشعوب عن أهدافها التى تتحقق فيها مصالح الغرب [2].

= المسلمين وفى قدرتهم على التوسع والإخضاع ، وفى الحيوية المدهشة العنيفة التى يمتلكونها . – وفى كلمة لمسؤول فرنسى سنة – ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م) : ليست الشيوعية خطرا على أوربا – فيما يبدو لى – إن الخطر الحقيقى الذى يهددنا تهديدا مباشرا عنيفا هو الخطر الإسلامى، والمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربى ، فهم يملكون تراثهم الروحى الخاص ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة وهم جديرون أن يقيموا بها قواعد جديدة دون حاجتهم إلى الاستغراب ، وفرصتهم فى تحقيق أحلامهم هى اكتساب التقدم الصناعى الذى أحرزه الغرب . راجع :

– لم هذا الرعب كله من الإسلام الأستاذ جودت سعيد .

– الخطر الصهيونى على العالم الإسلامى الأستاذ ماجد الكيلانى .

– الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين .

(١) ما يلز كوبلاند - لعبة الأمم - ص ٣٣ تعريب مراد سرخيس التوزيع : دار الفتح للطباعة والنشر . وقد أشار إلى اتصال السكرتير الأول للسفارة البريطانية فى واشنطن ا سيشل) بمساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى – وإفريقيا ليسلمه رسالة تشير إلى اعتراف بريطانيا إلى إنهاء وصايتها على بعض أرجاء العالم لأزمة مالية تمر بها، فإنها لن تتمكن من القيام بأعباء مقاومة الشيوعية فى كل من تركيا واليونان.

(٢) يشير مايلز كوبلاند - مندوب المخابرات المركزية الأمريكية فى الشرق الأوسط فى كتابه لعبة الأمم – إلى هذه الحقائق حين يقرر :

أ–لقد كان من المفهوم فى التقارير والوثائق السرية للحكومة الأمريكية فى أوائل عام (١٩٤٧م ١٣٦٦هـ) أن دبلوماسيتنا وأجهزة مخابراتنا بالحالة التى كانت عليها فى ذلك الوقت يجب أن تعمل لإحداث تغييرات فى قيادات بعض دول الشرق الأوسط . =

القوة العسكرية المحلية تقوم بالدور الجديد :

لم تعد الشعوب تحتمل أن ترى السترة الصفراء الأجنبية تحكمها مهما حاولت أن تدعى الصداقة أو حتى أن ترفع راية الإسلام [1].

وكان لابد من أن ترحل السترة الصفراء الأجنبية ، لكن الباطل لا يستغنى عن القوة، وإلا تهاوى وسقط ! ومن ثم كان لابد من أن يبحث عن مصدر آخر للقوة ، حتى يمضى فى تنفيذ مخططه الأثيم لإبعاد شعوب الإسلام عن الإسلام ، وهداه شيطانه إلى ما نجح فيه إلى حد ما ..

فاستبدل بالسترة الصفراء الأجنبية ، السترة الصفراء المحلية .

وصرح بعض كتابه : أن هؤلاء أقدر على التغيير الاجتماعى المطلوب [2]، وعرفت المنطقة الانقلابات العسكرية [3]بديلا عن جيوش الاحتلال الأجنبية، ومن

= ويشير المؤلف فى الفصل الثانى من كتابه إلى حضور السفير البريطانى إلى وزارة الخارجية الأمريكية بإبلاغها بقرار الحكومة البريطانية وقف مساعدتها لحكومتى تركيا واليونان ، ويفسر ذلك بأن معناه انسحاب بريطانيا من الشرق الأوسط وضرورة حلول أمريكا محلها فى المنطقة لملء الفراغ .

ب-على العموم ، فإن ما كنا نحاوله هو ملء الفراغ الناتج عن انسحاب بريطانيا من اليونان وتركيا – هذا الفراغ الذى يشمل كما قلنا من قبل جميع منطقة الشرق الأوسط ص ٢٨ ، ثم يشير المؤلف إلى قرار وزير الخارجية الأمريكية دين أتشيسون بالتدخل ولو بالأساليب غير النظيفة .

جـ - ونتيجة لذلك فإنه فى نهاية ١٩٥١م قرر تشكيل لجنة خبراء سرية لدراسة العالم العربى فيما يتعلق على الخصوص بالنزاع العربى الإسرائيلى لاستعراض المشاكل واقتراح الحلول ، سواء كانت تتفق مع أساليب العمل الحكومى النظيف أم لا ص ٤٨ .

ويشير بعد ذلك إلى تدخلهم فى انقلاب حسنى الزعيم (ص ٤٢) فى سوريا والدروس التى استفادوها منها ، ثم استعدادهم للعملية الكبرى فى مصر .

د-كان روزفلت غير واثق من الانقلابات العسكرية بعد أن رأى ما أدت إليه فى سوريا من فوضى ولكنه وافق على أن يقابل الضباط الذين قدمتهم له المخابرات المركزية الأمريكية ، على أنهم زعماء التنظيم السرى العسكرى الذى يدبر انقلابا عسكريا فى مصر . ص ٥٣ .

ثم يشير إلى أن من أهداف هذا الانقلاب استبعاد الثورة الشعبية التى يسعى لها - بجد - الإخوان المسلمون ص ٥٤ س ١٥ ، ٥٩ س ٢ وللتمويه يضيف : والشيوعيون.

(١) ادعت بريطانيا الصداقة لمصر أثناء احتلالها .. وادعى نابليون من قبل الإسلام، وأعلن خليفته فى مصر فعلا إسلامه، وعندما اقتربت جيوش الألمان من مصر كانت المنشورات فيها توزع باسم محمد هتلر !!

(٢) راجع ما كتبه مورو بيرجر - الكاتب الأمريكى - عن أن النخبات الوطنية أقدر من النخبات الأجنبية فى إحداث التغيير الاجتماعى المطلوب .. وتحذيره من الاكتفاء بمجرد فرض التغيير ، بل لابد من تعهده حتى يعمق فى نفوس المجتمع .

(٣)المرجع السابق ص ٣٠٤ – ٣٠٥، ويذكر صراحة مايلز كوبلاند فى لعبة الأمم: كان انقلاب حسنى الزعيم يوم ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩ من إعدادنا وتخطيطنا ، لعبة الأمم - ص ٤٩ ثم يقول فى ص ٥٨ : وكان قرارنا الأخير: أن تكون مصر خطوتنا الجديدة.

أمثلة ذلك كما صرح أحد الكتاب الأمريكيين :

سوريا سنة ١٣٦٨هـ ١٩٤٩ م .

مصر سنة ١٣٧١هـ ١٩٥٢م .

ومن قبل هؤلاء :

إيران سنة ١٣٣٨ هـ ١٩٢٠ م .

تركيا سنة ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ م .

وفى كل مرة يستفيدون من تجارب المرة السابقة .

فمثلا ، الخطأ الذى وقع فيه كمال أتاتورك فى محاولة فرض التغيير الاجتماعى بالقوة .. استبدلت القدرة بالقوة .

مع وسائل الإعلام المختلفة ، وما يصحبها من وسائل أخرى للتبشير – أشرنا إليها .

فقد كان أتاتورك غيبا حين فرض خلع الطربوش بالقوة .

فقد خلعه الناس فى مصر لما رأوا رجال الانقلاب الجديد الأبطال لا يلبسونه بدون حاجة إلى قانون ! وهكذا !

لكن القوة بقيت لازمة تؤدى أمرين :

أولهما : قمع المعارضة والمعارضين ـ خاصة إنْ كانوا من أصحاب العقائد .

ثانيهما : مساندة الباطل والمبطلين ، فيما يمضون فيه من تخطيط أثيم لإبعاد الناس عن الإسلام .

ولبيان هذين الخطين ، نقدم وثيقة جاءت فى حيثيات حكم صدر فى بلد إسلامى ، نسقط منها أسماء الضحايا ، وأسماء المجرمين؛ لنصل بها إلى الموضوعية الكاملة [1] .

تبدأ الوثيقة بالإشارة إلى أسماء أعضاء اللجنة التى قدمت معلوماتها واقتراحاتها، وأكثرهم من رجال المخابرات والمباحث والأمن .

(١) هذا الحكم منشور فى كتاب (الزنزانة للدكتور جريشة) – الناشر : دار الشروق.

ثم تلخص معلوماتها بالإشارة إلى أن تدريس التاريخ الإسلامى فى المدارس للنشء بحالته القديمة يربط الدين بالسياسة فى لا شعور كثير من التلاميذ منذ الصغر ، ثم الإشارة الإشارة إلى صعوبة التمييز بين معتنقى الأفكار (...) وبين غيرهم من المتدينين.. إلخ .

ليصل إلى المطالبة :

١ـ بمحو فكرة ارتباط السياسة بالدين .

٢ـ إبادة تدريجية بطيئة مادية ومعنوية وفكرية للجيل القائم بحمل الدعوة الإسلامية، ولا يقتصر الأمر على هذه الفئة ، بل يمتد إلى «كل المتدينين باعتبارهم يمثلون الاحتياطى الذى يصب فى هذه الفئة» !

ومن وسائل الإبادة : الإعدام ، والسجن ، والاعتقال ، ويبلغ الأمر غاية خسته حين تصرح « بالنسبة لنسائهم سواء كن زوجات أو بنات ، فسوف يتحررن ويتعرضن مع غياب عائلهن وحاجتهن المادية .. إلى انزلاقهن » .

وهكذا تفقد الأنظمة العسكرية حتى الشرف والكرامة !!

بقى السؤال لماذا يفضلونها وطنية ؟

نسمع إجابتين :

إجابة من الكاتب الأمريكى مايلز كوبلاند .

«فكان الحكام من (طراز ...) يعطون الأولوية على غيرهم؛ لأن استيلاءهم على السلطة يوفر أفضل الفرص – أو أقلها سوءا – لنجاح (لعبتنا) » [١].

وفى مكان آخر : «إن نموذجاً (مثلُ ناصر) كان من الأهمية بمكان بخصوص اللعبة ، وإنا كنا ملزمين بالبحث عن مثيل له فيما لو لم يكن على قيد الحياة » [٢].

وإجابة من الكاتب الأمريكى مورو بيرجر :

وكان الجيش من بين كل جماعات النخبة الوطنية أكثرها دنوا من المشاكل التى تواجهها مصر، دنوا بالمعنى الحسابى ، والعلمانى ، والواقعى ، وبهذه الصورة كان

(١ ، ٢) لعبة الأمم ص ٢٦ ، ٢٨.

الجيش أكثر النخبات تغربا [1].

والواضح من تقرير (....) الموجز أن الضباط كانوا علمانيين يتوقون إلى بث التعاصر فى مصر متماشين مع الخط الغربى التكنولوجى،ولم يكن الضباط على ثبات أيديولوجى ، بل كانوا جماعة علمانية فى البناء السياسى والاجتماعى للحياة المصرية، إلا أن قيادتهم كانت تضع نصب عينيها صورة من مصر العلمانية كما يتصورونها ، ويتحركون صوب هذا الهدف على خط مستقيم [2].

ويعمم الكاتب : « وعلى ذلك، فبينما يترك الحكام الغربيون منطقة الشرق الأدنى تتحول هذه المنطقة فتصبح أكثر غربية ، ويواجه الزعماء العرب طريقين : فهم يطردون الغرب سياسيا ويسحبون الكتل الشعبية إلى الغرب ثقافيا » [3].

ونجيب بعد هؤلاء فنقول ـ بعون الله :

١ـ أن النخبة الوطنية التى حلت محل « النخبة الأجنبية » وفرت على الأخيرة أولا : الدم والمال اللذين كانا يبذلان فى الحروب الصليبية أو فى محاولات الاستعمار.

٢ـ وأنها كذلك منعت إثارة المشاعر الدينية أو الوطنية ، التى كانت تتحرك حين يرى الشعب الجيوش الأجنبية قادمة ، تتحدى قيمه الدينية ، أو قيمه الوطنية ، ومن ثم فقد ميعت المقاومة أو منعتها !

٣ـ أنها بلباس الوطنية نفذت المطلوب ، ليس فقط دون مقاومة بل أحيانا مع استحسان الجماهير وحماستها [4].

(١ ، ٣) العالم العربى اليوم ص ٣١٢ ، ص ٣١٤ ، وراجع ما قدمنا، - والمقصود بـ «تغربا» الميل إلى الغرب فى قيمه ومثله، بدلا من قيم الإسلام ومثله.

(٤) وفى هذا السبيل لا بأس من أن تسمح الجهات الأجنبية بمهاجمتها لتكسب الحاكم مؤيدا من الصفات الوطنية ، ولتكسب استحسان الجماهير وحماستها . وفى هذا المعنى يقول مايلز كوبلاند : فإن مساندتنا لأى زعيم للوصول إلى سدت الحكم والبقاء هناك حتى يحقق لنا بعض المصالح التى نزيدها ، لابد أن يرتطم بالحقيقة القاسية وهى : أنه لابد له من توجيه بعض الإساءات لنا حتى يتمكن من المحافظة على السلطة ويضمن استمرارها (ص ٥٥ من كتاب لعبة الأمم.

وفى الوقت نفسه يقول السياسى الصهيونى مستر سكوثيان فى مقال يرثى فيه زعيما عربيا : كان الرجل الوحيد الذى اقتنع بضرورة التعايش السلمى مع إسرائيل ، وكانت لديه الجراة والسلطة الكافية لإيجاد الظروف اللازمة لهذا التعايش . ص . ز، مقدمة كتاب الدبلوماسية والميكافيلية فى العلاقات العربية الأمريكية – دكتور محمد صادق . وفى مكان آخر يقول مايلز كوبلاند : إن الهدف الرئيسى من دعمتنا (...) هو رغبتنا فى توفر زعيم عربى رئيسى يتمتع بنفوذ قوى على شعبه وعلى بقية العرب ، له من القوة ما يمكنه أن يتخذ ما شاء من القرارات الخطيرة وغير المقبولة من الغوغاء مثل عقد صلح مع إسرائيل ١ ص ٨٩ ، لعبة الأمم) .

٤ـ أنها استطاعت أن تقضى على كل معارضة من أى فئة ، دون أن يتحرك أحد لنصرة هذه الفئة ، بل مع اعتقادهم بما تذيعه «النخبة الوطنية » من أن المعارضين خوارج – أو خونة !!

وأخيرا ، سؤالٌ لا ينفك عن السؤال الأخير :

لماذا يفضلونها«عسكرية »؟

نقول ـ بعون الله :

١ـ لأنها «أسرع » فى الوصول إلى الحكم ، وأكثر شغفا بالسلطة [١] .

٢ـ لأنها « أسرع » فى تلبية الأوامر الخارجية ، والالتزام حرفيا بها ، فهكذا تعلمهم الحياة العسكرية .

٣ـ لأن قبضتها «أقوى » بالنسبة لأية معارضة أو أية مقاومة .

٤ـ أن الطبقة العسكرية فى أغلبها أعدت إعدادا خاصا ، يجعلها « علمانية »و «غربية » لا تستنكف الانحلال لنفسها ولا لغيرها ، ومن ثم فهى أنسب الفئات لتنفيذ مخطط الإبعاد من «الإسلام».

٥ـ أنها تزيح بذلك احتمال تقدم عناصر دينية إلى الحكم عن الطريق الشعبى العادى[٢] !

وليس معنى اللجوء إلى الانقلابات العسكرية، انتهاء الوسائل الأخرى . إن القوى الأجنبية المعادية للإسلام لا تزال محتفظة لبعض الأنظمة «الرجعية »بالبقاء ، أو لأنها تنفذ ما يطلب منها ، وثانيا : لأنها أضعف من أن تقف يوما فى وجهها ، وثالثا : لأنه داخل هذه الأنظمة نفسها يجرى التغيير ، باستعداء الابن على أبيه، والأخ على أخيه ، بعدما يجرى الاتفاق على الصفقة،وماذا يبيع لكى يجلس على العرش ؟ ! ورابعا : لأنها حين يبدو العصيان يكون الردع سريعا وعنيفا ، وحوادث « الاغتيال السياسى » فى الماضى القريب شاهدة على ذلك ، وقد كانت موضع تحقيق

(١) لقول مايلز كوبلاند : وكان مبتغانا أن ندفع إلى الرئاسة حاكما أكثر شغفا بالسلطة (ص ٥٩ من لعبة الأمم) .
(٢) ص ٦٣ – ٦٥ من (لعبة الأمم) .

«الكونجرس» فى فضائح المخابرات المركزية الأمريكية .

وأخيرا ، فإن بقاء هذه الأنظمة - فى نظر أعداء الإسلام - رهين بانتهاء العصبيات التى تستند إليها، وفى المواجهة بزيادة قوة وقدرة القوات المسلحة لتولى الأمر، حينئذ سوف تخلعها بيسر وبغير حياء ، ولا احترام للود البادى والوفاء الظاهر !!

وهكذا نرى اتفاقا غربياً على علمنة التعليم ، وعلمنة الإعلام ، وعلمنة المجتمع كله، عن طريق المرأة وعن طريق الشباب؛ ليبتعد بذلك عن الإسلام نجدها فى الدول الإسلامية ـ رغم اختلاف نظم الحكم الحاكمة؛ لأن التغيير السياسى وإن اختلف أسلوبه، فالهدف لا يختلف وهو التغيير الاجتماعى أو التغريب أو بالعبارة الواضحة : الإبعاد عن الإسلام !

لكن، هل انتهت تماما وسيلة الحروب والاستعمار التى كانت سبيل الغرب من قبل لفرض أهدافه وغاياته ؟

لا نستطيع أن نجيب بالنفى ؛ لأن الحروب انتهت فى أغلب البلاد فى صورتها العسكرية ، واستبدلت لها الحرب الفكرية والنفسية لتحطيم عقيدة الأمة ومبادئها .

ولا نستطيع أن نجيب بالإثبات؛ لأنها لا تزال تستعمل فى نطاق محدود ، وهو ما اصطلح الغرب على تسميته بالحرب المحدودة ، واحتلال الجيوش الأمريكية لشواطئ لبنان سنة ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨ هـ مثل قريب ، وتحركات الأسطول السادس كذلك .

لكن فى رأينا أن الحرب المحدودة ارتدت كذلك ثوبا محليا ، فأصبحت الجيوش العربية أو الإسلامية تسلط لهذا الغرض ، وتدخل سوريا فى لبنان مثل قريب، وانفصال بنجلاديش عن باكستان من قبلها مثل قريب كذلك !

المبحث الثانى

التغيير الاجتماعى

ما يبغى الغرب منا ؟

فى البداية، كان الهدف واضحا : إخراج المسلمين من دينهم وإدخالهم إلى دين آخر - كما وضح ذلك من كلام المبشرين .

ثم لما صارت عملية «التنصير » بلغة الأرقام صعبة إن لم تكن مستحيلة بين الشعوب التى تدين بالإسلام، اقتصرت العملية على الجزء الأول منها : إخراج المسلمين من دينهم، وكانت الوسائل إلى ذلك هى نفس الوسائل «وسائل التبشير»الأولى التى كانت تقوم بالشقين : الإخراج من الإسلام ، والإدخال فى الدين الآخر .

ونجحت الخطة الثانية ، ولا تزال تعمل فى كثير من البقاع الإسلامية .

ثم كانت الخطة الثالثة ، التى لا تذهب إلى عملية الإخراج من الدين تماما ، ولكنها تكتفى بالإبعاد ؛ الابعاد عن الدين ، من غير استعمال لفظ الإبعاد حتى لا يستثير حفيظة المسلمين أو تنبيههم إلى حقيقة الهدف ، وكانت وسائل التبشير الأولى هى التى تستعمل لتحقيق الهدف الجديد ، مع تطوير فيها يجعلها أكثر نعومة ، وأكثر فاعلية .

إذا فالهدف هو إبعاد المسلمين عن الإسلام باعتباره الخطر الكامن كما يتصور الغرب أو يتوهم ، وقد كانت الإشارة إلى هذا الهدف تحت اصطلاحات أكثر تهذيبا مثل التغريب أو التغيير الاجتماعى [1].

معنى التغيير الاجتماعى وصلته بالتغيير السياسى :

إن النخبة العسكرية فى الشرق الأدنى فى مصر والسودان ، والعراق وتركيا وإيران وباكستان كانت عوامل مهمة فى جلب التغيير الاجتماعى .

---

(١) راجع فى ذلك كتاب : الحضارة الغربية للدكتور محمد محمد حسين وكتاب : (العالم العربى اليوم - للكاتب الأمريكى مورو بيرجر.

وتشترك النخبات العسكرية العربية اشتراكاً عميقا فى الاعتقاد بضرورة التغيير الاجتماعى السريع .

أما الآن فقد قبلت التأثيرات الغربية فى الشرق الأدنى إلى درجة تجعل من الصعب التحقق من أن امرأ ما قد ذهب أو لم يذهب إلى أوربا أصلا؛ فقد أصبح العرب «متغربين» بدون أن يتكلفوا عبء الذهاب إلى أوربا .

فبينما يترك الحكام الغربيون منطقة الشرق الأدنى ، تتحول هذه المنطقة فتصبح أكثر غربية ، ويواجه الزعماء العرب طريقين :

فهم يطردون الغرب سياسيا ، ويسحبون الكتل الشعبية إلى الغرب ثقافيا [1].

التغيير الاجتماعى - إذن - يعنى تغيير قيم الأمة ، ومثلها تغيير ثقافتها وأخلاقها وعقيدتها ، وبعبارة واضحة : إبعاد المسلمين عن دينهم .

والتغيير الاجتماعى ، قد يسمى التغريب ، وقد يسمونه المدنية أو التطور أو التقدم ، وأيا ما كانت الحال فلن يكون هناك سبيل إلى التراجع . إن العمل يسير بجد ونشاط فى إدخال المدنية الغربية إلى مصر .

وهو يأخذ طريقه بتقدم ونجاح حسب خطة مرسومة، وضعت خطوطها بعد دراسة الموقف، تقوم على التطور والتدرج [2].

وواضح أن التغريب ، أو التغيير الاجتماعى ، الذى كان يجرى على أيدى المحتلين والمستعمرين ، صار يجرى اليوم - فى أكثر الأحوال - على أيدى «النخبات الوطنية» التى هى فى أكثر الأحيان «عسكرية» [3].

---

(١) راجع مورو بيرجر فى العالم العربى اليوم ، صفحات ٣٠٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٣١ ، ٣٤٠ ، ٣٤٨ .

(٢) الفقرة الثالثة من تقرير اللورد كرومر سنة ١٩٠٦ ص ٨ من النسخة الإنجليزية .

(٣) يشير الكاتب الأمريكى إلى تقرير لزعيم مصرى جاء فيه: إن الضباط كانوا علمانيين (ستعرف معنى العلمانية فى الصفحات القليلة القادمة ـ يتوقون إلى بث التعاصر فى مصر متماشين مع الخط الغربى التكنولوجى .

ولم يكن الضباط على ثبات أيدلوجى ، بل كانوا جماعة علمانية فى البناء السياسى والاجتماعى للحياة المصرية ص٣١٣ع، ٣١٤ ، من المرجع المذكور ويضيف الكاتب الأمريكى: أن معيار ذلك الزعيم فى الضابط الكفء ، هو استنتاج على الأقل تعرفه إلى الغرب ، وينقل الزعيم فى الضابط الكفء مدحا لرئيس هيئة أركان الجيش المصرى فى الحرب العالمية الثانية : كان متقبلا للأفكار الحديثة لكثرة زيارته لفرنسا وإنجلترا وألمانيا) ص٣١٠ من كتاب العالم العربى اليوم ،للكاتب الأمريكى مورو بيرجر.

هذه هو الهدف : التغيير الاجتماعى ، الذى يعنى فى الحقيقة إبعاد الأمة عن دينها فى شتى نواحى الدين التى تشمل شتى نواحى الدنيا .

ولكن لهذا الهدف وسيلة أو وسائل وأساليب هى التى تمثل « التكتيك» الجديد لغزو الغرب الفكرى .

ويحسن أن نعرض لها فى مبحث مستقل.

obeikandl.com

المبحث الثالث

أساليب التغير الاجتماعى

«أو التغريب »

يتخذ الترتيب لإحداث التغيير الاجتماعى - الذى يبعد الأمة الإسلامية عن إسلامها - يتخذ خطة «استراتيجية » طويلة المدى حتى تحس الأمة الإسلامية بالهدف البعيد ،بل قد لا تحس بالأسلوب الذى يجرى به التغيير ، وكأن هذا التغيير يتم تلقائيا .

وأهم ما فى هذه الاستراتيجية من تخطيط ، أن يتخذوا لهدفهم رسولا منا « من أنفسهم»، «وأن يقطع الشجرة أحد أعضائها » الأمر الذى يجرى فى التغيير السياسى سواء عن طريق الانقلاب العسكرى ، أو الاغتيال السياسى بالأساليب التى أشرنا إليها .

يلى ذلك أنهم يخاطبون بهؤلاء الأعضاء ، يخاطبون بهم فكر الأمة وعقيدتها ، ومن ثم يجرى التغيير - أول ما يجرى - داخل العقول والقلوب ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى مجال الأخلاق والتقاليد والعادات .. ويبلغ الاهتمام بإحداث التغيير أدنى مظاهره كأكل الطعام باليد اليسرى ، وإلقاء التحية بغير تحية الإسلام .

ولولا كتابات كتبها مفكروهم لتوجيههم إلى أحسن الوسائل لبلوغ أسوأ الأهداف وأخبثها ، ما استطعنا أن نعرف شيئا عن «استراتيجية » الغرب أو تكتيكه نحو هذه الأمة المسلمة ، وقبل ذلك لولا فضل الله ورحمته لانتهت هذه الأمة المسلمة ، وقبل ذلك لولا فضل الله ورحمته لانتهت هذه الأمة نتيجة ذلك التخطيط العميق والتنفيذ الدقيق لإبعاد الأمة عن دينها .

وإذا كانت أساليب التغيير الاجتماعى تتجه إلى فكر الأمة وعقلها ثم إلى عقيدتها وقلبها ، فإنها تعتمد على وسائل الإقناع المختلفة .

وتخطط لها تخطيطا علميا يقوم عليه علماء النفس وعلماء الاجتماع ، فوق أجهزة التخابر والإحصاء المختلفة .

ويسير التخطيط على جعل وسائل الإقناع المختلفة فى أيدى غير المستمسكين بالدين ، فإذا أفلت متدين إلى هذه الوسائل أحاطته بوسائل الإغراء والاحتواء المختلفة حتى تتحرف به على السبيل القويم .

وتحت شعارات : العلمانية ، والقومية ، وتحرير المرأة ، تجرى وسائل الإقناع المختلفة لتحقيق إبعاد الأمة عن دينها .

ونحاول بمشيئة الله بحث هذه الثلاثة لنتبين كيف يجرى بها إبعاد الأمة عن دينها .

أولا : العلمانية

معنى العلمانية :

قد تشعر الكلمة فى اشتقاقها أنها تعنى رفع شعار العلم ، ومن ثم فلا تعارض بينها وبين الإسلام ، بل إنها إحدى وسائل الإسلام وبعض أهدافه !

وهو ما نحسب أنهم قصدوا إليه حين ترجموا معنى الكلمة فى لغتها الأصلية ، ليقع المسلمون فى هذا الوهم !!

إن العلمانية ترجمة للكلمة الإنجليزية Secularity وهذا اشتقاق من Secular وهى مرادفة للكلمة الإنجليزية Unreligous أى لا دينى أو غير عقدى، ومن ثم كانت العلمانية تعنى اللادينية !!

ومن هنا نفهم إعلان البعض عن قيام دولة علمانية ، أو عن رغبة البعض الآخر فى ذلك !

ونفهم سر اختيار الكلمة ، إنها تعبر عن المقصود دون صدم للمشاعر والأحاسيس !

ولنا أن نتصور الفارق بين الإعلان عن دولة علمانية أو الإعلان عن دولة لا دينية !

من هنا نحس خبث ترجمة الكلمةإلى لفظ العلمانية، ونحس خبث الذين يستعملون هذا اللفظ دون اللفظ الكاشف عن المعنى المقصود ، ونحس مع هذا كله بواجبنا لتعرية هذا اللفظ الخبيث على حقيقته !

العلمانية بين الغرب والشرق :

لم يكن غريبا فى الغرب أن تجد العلمانية مكانها ، فقد فرضت ذلك ظروف الغرب ، نتيجة تسلط الكنيسة وتحالفها مع الظالمين على شعوب الغرب المختلفة ووقوفها فى وجه كل تفتح فكرى أو كشف علمى ، وتجاوزها ذلك الحجر على العقول ، إلى حجر أخطر على القلوب ، حين فرضت صكوك الغفران وقرارات الحرمان ، وراحت تتاجر بها وتتخذها وسيلة للكسب الحرام !!

وغرقت أوربا فى دماء ضحايا الكنيسة ، حيث سقط المئات بل الآلاف تحت مقاصل محاكم التفتيش ومشانقها ، غير من غيبوا فى غياهب السجون .

وإذا كانت سنة الله فى الكون أن لكل فعل رد فعل مساويا له فى القوة ومضادا له فى الاتجاه ، فلقد وقع الصراع ـ صراع العلم مع الكنيسة ـ وانتهى بإعلان العلمانية التى تعنى فصل الدين عن الدولة ، وتقلص سلطان الكنيسة داخل جدرانها !!

وفضلا عن أن ظروف أوربا التاريخية كانت تبرر انتشار العلمانية وفصل الدين عن الدولة ، فلقد كانت ظروف الديانة المسيحية بعدما أدخل عليها من تحريف – كان اليهود وراء أكثره – كانت ظروف الديانة المسيحية تسمح كذلك بوجود علمانية إلى جانب الدين.

وليس غريبا بعد ذلك أن يكون اليهود وراء فصل الدين عن الدولة كما صرح بذلك كاتب أمريكى [1] ، بغية القضاء على بقايا الدين الذى حرفوه بتعطيله وحبسه عن المجتمع داخل جدران الكنيسة .

(١) وليام غاى كار فى كتابه : أحجار على رقعة الشطرنج.

وليس غريبا بعد ذلك أن نسمع عن أن الدين الذى حبس داخل جدران الكنيسة قد جرى فيه التطوير ، حتى صارت الصلاة تؤدى على أنغام الموسيقى ثم تعقبها حفلات الرقص بين الجنسين تحت الأضواء الخافتة الحالمة وبين الألحان الدافئة والساخنة ، تحت سمع وبصر رجال الدين ، بل تحت « رعايتهم وتوجيههم » السديد .

وكانت أوربا قد بلغت فى التقدم العلمى « التكنولوجى» درجة جعلتها ـ ولو إلى حين ـ تستطيع أن تقيم نهضة مادية ، بهرت الناس فى أكثر الأحيان .

وحين أريد نقل العلمانية إلى الشرق الإسلامى ، غفل المسخرون ـ عن علم أو عن جهل ـ غفلوا عن هذه الظروف جميعا ، غفلوا عن أنه ليس فى ظروف الشرق الإسلامى التاريخى ما يبرر فصل الدين عن الدولة ، فلم يكن ثمة اضطهاد من رجال الدين الإسلامى ـ إذا صح التعبير للمقابلة مع رجال الكنيسة ـ لم يقع اضطهاد من علماء المسلمين للعلم أو للعلماء .

ولم يكن فى تاريخنا الإسلامى محاكم تفتيش ، ولا صكوك غفران ، وقرارات حرمان.

والذين انحرفوا من العلماء عن جادة السبيل إلى ممالأة الحكام ، لفظتهم الأمة وجعلتهم وراء ظهورها ، والذين كانوا لسان صدق حملتهم فى حنايا صدورها وقدمتهم فى أول صفوفها .

كذلك لم تكن الديانة الإسلامية لتسمح بالفصل بين الدين والدولة ؛ لأن الدولة فى فقه الإسلام قسم للدين لا قسيم ، فلا دين بغير دولة ولا دولة بغير دين .

كذلك لم تكن الديانة الإسلامية لتسمح بقيام العلمانية إلى جوار الإسلام ، بمقولة أن الإسلام يبقى داخل دائرة العقيدة والشعيرة ، وتعمل العلمانية فى دائرة الشريعة، لأن الإسلام عقيدة وشعيرة وشريعة ، وهو فى هذا لا يقبل التجزئة ولا التفرقة ، ولا يرضى أن يكون مع الله أرباب آخرون أو قياصرة آخرون يدين لهم الناس فى مجال الشريعة كما يدينون لله فى مجال العقيدة والشعيرة .

كذلك مع التسليم جدلا بصحة نظرة الغرب التى اعتنقها الحاقدون أو الجاهلون فى الشرق الإسلامى ، فلم يكن الشرق الإسلامى قد وقف على قدميه وبلغ التطور العلمى والتكنولوجى الذى بلغه الغرب ليطرح الدين جانبا ، ويرفع شعار العلمانية.

ومن ثم حرم الشرق الدين كما حرم الدنيا ، وارتضى بقشور تورثه الترف والدعة، وتبعده كثيرا عن الجد والجهاد والعمل .

وسائل نشر العلمانية :

حرص الغرب منذ وطئت أقدامه التراب الإسلامى على نشر العلمانية بأكثر من سبيل، وحين ورثت النخبات الأجنبية « النخبات الوطنية » مكان السلطة وبوأتها كراسيها حرصت على زيادة نشر العلمانية بكل الوسائل ، ووضعت خبراتها «العلمية» والتكنولوجية لتحقيق هذه الغاية.

ومن ثم فلم يكن غريبا أن نسمع عن بلاد إسلامية متخلفة ـ من الدرجة الثالثة أو الرابعة ـ تدخل فيها «التلفزيون» ، قبل أن تمحو من أبنائها الأمية التى تربو على الثمانين أو التسعين فى المائة ، بل إننا نسمع عن إدخال التلفزيون الملون فى بلاد متخلفة جدا وأحيانا فقيرة جدا.

أما مجالات نشر العلمانية ووسائلها فقد كانت : أولا فى التعليم ، ثانيا : فى الإعلام ، صحافة وإذاعة ، وتلفزيون ، وسينما ، ومؤلفات ، ثالثا : فى القانون . ويحسن أن نعرض لكل بكلمة :

أولاً : التعليم :

إن التعليم الوطنى عندما قدم الإنجليز إلى مصر كان فى قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين ، والتى كانت أساليبها الجافة القديمة !! تقف حاجزا فى طريق أى إصلاح تعليمى ، وكان الطلبة الذين يتخرجون فى هذه الجامعة يحملون

معهم قدرا عظيما من غرور التعصب الدينى !! ولا يصيبون إلا قدرا ضئيلا من مرونة التفكير والتقدير ، فلو أمكن تطوير الأزهر عن طريق حركة تنبعث من داخله لكانت هذه خطوة جليلة الخطر.

ولكن إذا بدا أن مثل هذا الأمل غير متيسر تحقيقه، فحينئذ يصبح الأمل محصورا فى إصلاح التعليم اللادينى الذى ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح ، وعندئذ فسوف يجد الأزهر نفسه أمام أحد أمرين : فإما أن يتطور ، وإما أن يموت ويختفى [1].

* هذه كلمات اللورد كرومر ، الذى حكم مصر المسلمة ممثلا للاحتلال الإنجليزى يساعده دنلوب، وهو أحد المتخرجين فى كلية اللاهوت فى لندن .

* تكملها كلمات للمستشرق جب (وفى أثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر نفذت هذه الخطة لأبعد من ذلك بإنماء التعليم العلمانى تحت إشراف الإنجليز فى مصر والهند) [2].

* وأخيرا تكمل هذا كلمات زعيم المبشرين النصارى «زويمر» يقول على جبل الزيتون فى القدس إبان الاحتلال الإنجليزى لفلسطين سنة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥م) (لقد قبضنا أيها الإخوان فى هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم فى الممالك الإسلامية ،وأنكم أعددتم نشءًا فى ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله ، ولا يريد أن يعرفها (!) ، وأخرجتم المسلم من الإسلام ، ولم تدخلوه فى المسيحية ، وبالتالى جاء النشء الإسلامى، طبقا لما أراده له الاستعمار المسيحى لا يهتم بالعظائم ، ويحب الراحة والكسل ، ولا يعرف همه فى دنياه إلا فى الشهوات . فإذا تعلم فللشهوات ، وإذا جمع المال فللشهوات ، وإن تبوأ أسمى المراكز، ففى سبيل الشهوات يجود بكل شىء) .

(١) تقرير كرومر لسنة ١٩٠٦م الفقرة ٣ ص ٥، والاتجاهات الوطنية للدكتور محمد محمد حسين ج١ ص٢٧٥.
(٢) وجهة الإسلام ، تأليف المستشرق جب وآخرين ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة .

كانت تلك هى النصوص ..

ومفادها : أنه لما كانت البلاد الإسلامية فى سابق عهدها إسلامية التعليم ، فقد كبر على الاستعمار الغازى أن يترك للمسلمين دينهم ،بعد أن أبى عليهم أن يترك لهم أرضهم .

وكان لابد له أن يحقق لهم «جهالتهم »بالدين ليتحقق فيهم من بعد، أن من جهل شيئا عاداه.

وكان له فى ذلك أكثر من سبيل :

أما السبيل الأول : فهو ما لجأ إليه من حصر التعليم الدينى ، وحصاره ماديا ومعنويا.

فأما الحصر والحصار المادى ، فقد كان يفتح التعليم اللادينى فى مواجهته وتشجيعه، وهو ما أشار إليه المستشرق جب «بإنماء التعليم العلمانى تحت الإشراف الإنجليزى فى مصر والهند » . وتم مع ذلك تضييق الموارد المادية على التعليم الدينى.وإغداقها على التعليم اللادينى .

وأما الحصر والحصار المعنوى ، فهو ما لجأ إليه من تنفير وسخرية بطالب العلم الدينى وبأستاذه، وبالتفرقة بين أستاتذة الدين ، والمواد الأخرى فى كل شىء ، تفرقة مرسومة مقصودة ، ثم بالتفرقة بين خريج المعاهد والكليات الدينية، وبين زملائه فى الكليات الأخرى، فمناصب المعاهد والكليات الدينية محدودة ، متواضعة فى المظهر وفى الأجر ، ومناصب المعاهد والكليات الأخرى عديدة كثيرة فارهة المظهر ، والأجر ، وفى اللاشعور يرسب ذلك كله نفورا من الدين .وإقبالا على غير الدين.من حيث لا يدرى الطالب الصغير، أو الكبير ومن حيث لا يشعر .

وأما **السبيل الثانى** :فكان الابتعاث إلى الخارج ، إلى الدول غير الإسلامية ، وحقق ذلك الابتعاث نتائجه الباهرة المقصودة .

فهو أولا يزيد طالب التعليم العام جهالة بدينه وقيمه ومثله ، ويزيده تعلقا بقيم

الغرب أو الشرق ومثله ، وهو من ناحية أخرى يبدأ بتطبيعه بطباع غير إسلامية ، ثم يصير التطبع مع الزمن طبعا ، وينسلخ الطالب من حيث لا يشعر، حتى من تقاليده فى الملبس والمأكل والمشرب وطريقة التعامل ، ويغدو غربياً أو شرقيا ربما أكثر من الغربى أو من الشرقى .

وحول هذا المعنى يقول أحد الكتاب الغربيين :«فبينما يترك الحكام الغربيون منطقة، الشرق الأدنى ، تتحول هذه المنطقة، فتصبح أكثر غربية، ويواجه الزعماء العرب طريقين:

فهم يطورون الغرب سياسيا ويسحبون الكتل الشعبية إلى الغرب ثقافيا»[1].

ولقد بدأ هذا السبيل مبكرا ربما ليسارعوا إلى تخريج الأساتذة التى تجرى «تفريخ» مبادئهم بعد ذلك فى بلادهم بغير حاجة إلى ابتعاث الجدد ، وبغير حاجة إلى جهد غير وطنى ، وهو ما يصرح به نفس الكاتب السابق حين يقول :

«أما الآن فقد قبلت التأثيرات الغربية فى الشرق الأدنى إلى درجة تجعل من الصعب التحقق من أن امرأ ما قد ذهب أو لم يذهب إلى أوربا أصلا ، فقد أصبح العرب «متغربين بدون أن يتكلفوا عبء الذهاب إلى أوربا ».

ومثل ذلك هو الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى الذى ابتعث إلى باريس خمس سنوات (١٨٢٦-١٨٣١) ليعود بعدها يصرح بأن الرقص الغربى (الذى تتلاصق فيه الأجساد وتختلط الأنفاس وتتلاقى النظرات)بأن هذا الرقص لون من العياقة والشلبنة (أى الفتوة)، ثم ينادى بالفرعونية (وهى فى ميزان الإسلام جاهلية وعصبية منتنة) ينادى بها بديلا عن الإسلام.

ومن بعد رفاعة ، كان طه حسين وكتاباته فى مستقبل الثقافة فى مصر وفى مرآة الإسلام ، ومن قبلها فى الشعر الجاهلى ، لا تحتاج إلى تعليق لكل ذى بصر إسلامى.

---

(١) العالم العربى اليوم - مورو بيرجر .

ومع طه حسين ، قاسم أمين الذى نادى فى مصر بتحرير المرأة، وإن نسب البعض كتابته إلى الشيخ محمد عبده «والزعيم» سعد زغلول ، وقد خشى الزعيمان على شعبيتهما ، فحملا قاسماً العبء ، وحمله إنه كان ظلوما جهولا .

كل هؤلاء ،لم تكن ثقافتهم، ولا تربيتهم محلية .

ومن ثم فلم يكن غريبا ما صرحوا به أو أذاعوه .

بل كان ذلك جزءا من مخطط رهيب أثيم لهدم قيم الإسلام ومثله.

ولا يزال الابتعاث ـ رغم ما خرج من أساتذة يقومون بنفس الدور ـ لا يزال له دوره، وبخاصة فى البلاد التى تسمى «نامية» والتى يخشى أن تتجه بصدق إلى الإسلام ، لا يزال الابتعاث يولى أهمية كبيرة لهذه البلاد، باعتبارها بكرا «ويصل الاهتمام إلى حد نزول الابتعاث من مرحلة ما بعد الجامعة إلى مرحلة ما بعد الثانوية العامة ، حيث سن المراهقة الخطيرة ينتقل فيه الشاب من المجتمع المغلق إلى المجتمع المفتوح ، والمفتوح جدا ، فتنقلب موازين عقله بعد موازين قلبه ، كما حدث فى درس رفاعة رافع الطهطاوى (الصعيدى).

كما يصل الاهتمام حدَّ الحرص على إيفاد المبعوث سنة كاملة كل خمس سنوات ، بعد عودته من بعثته المباركة ، وتوليه أهم المناصب .

وهكذا ، يستمر الرضاع بين الأم ووليدها دون فطام .

وهكذا ، يتولد ضمان استمرار «الولاء» و« الوفاء» أو ما هو أشد من الولاء والوفاء.

وأما السبيل الثالث : فهو انتشار المدارس الأجنبية فى البلاد الإسلامية، وقد كان فى البداية سبيلا لتنصير المسلمين ، وعلى هذا نصت بعض مؤتمرات التبشير ،وعلى هذا نفهم إنشاء الكلية الإنجيلية فى بيروت ، وإنشاء الجامعة الأمريكية فى مصر[1] .

(١) راجع: قرارات مؤتمر القاهرة ١٣٢٤هـ ١٩٠٦م ومؤتمر لكنؤ بالهند (١٣٢٩ - ١٩١١م) فى كتاب الغارة على العالم الإسلامى .

لكن استفادة من نصائح زويمر ، لم يعد مطلوبا إدخال المسلمين إلى المسيحية أنه يكفى إخراجهم من الإسلام .وعلى هذا تعمل المدارس الأجنبية حاليا فى البلاد الإسلامية .

وأقل ضرر لها هو الازدراء باللغة العربية ، وتمجيد اللغة الأجنبية بما يترتب على الأمرين من آثار خطيرة فى اللاشعور .

وأقل ضرر لها ، هو الازدراء بالدين ، بعد أن تعمد إلى تقديم مدرسه متهدما فى مظهره ومخبره ، مثيرا للسخرية والاشمئزاز من صغار الطلاب وكبارهم على السواء، بينما يظهر رجل الدين عندهم على نحو مخالف يولد الرهبة والاحترام وقد يولد الحب والود والألفة.

وأما السبيل الرابع : فقد كان تمييع المناهج الإسلامية باسم التطوير ، وقد رأينا أن كرومر قد دعا إلى تطوير الأزهر .

ورأينا خلفاء «كرومر » يقومون بالتطوير بعد خمسين سنة أو يزيد، ومع كرومر أو قبل كرومر نادت بذلك مؤتمرات التبشير .

ولم يكن الأمر مقصوراً على مناهج المعاهد والكليات الدينية، إن الأمر امتد إلى مناهج «الدين » فى التعليم العام ، فاقتصرت على القشور ، واحتوت على التعقيد ، وصاحبها سوء اختيار معلم الدين الذى كثيرا ما يكون متعمدا ليورث فى اللاشعور كراهية الدين والسخرية منه .

وأما السبيل الخامس والأخير : فقد كان نشر الاختلاط بين الجنسين فى مراحل التعليم، وقد بدؤوا بها فى الجامعات فى أكثر البلاد الإسلامية ، تحت دعوى التقدم والتمدين ، ونشر الروح الجامعية ، وكأن التمدن والتقدم، ونشر الروح الجامعية لا يتم إلا بإشعال نار الغرائز ، وتأجيج سعار الشهوة فى سن الشباب الملتهب .

وقالوا فى تبرير الاختلاط الكثير ، مما هو غير صحيح ـ حتى فى علمهم هم ، فقد قالوا: إن الاختلاط يشذب الغريزة ويهذبها ، وأثبت العلم أن الاختلاط لا يخلو من أحد أمرين :

إما أن يشيع «البرود الجنسى بين الجنسين » ، وهذا مرض تشكو منه بعض البلاد، وفى مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية .

وإما أن يؤجج سعار الجنس ويزيد لهيبه ، وهو ما تؤكده تجربة القط والفأر اللذين أتيا بهما وهما رضيعان، ثم وضعا فى قفص صغير واحد ،وظلا يأكلان سويا من طبق واحد ، حتى إذا جاء موعد ظهور الغريزة ـ ولكل غريزة موعد ـ انقض القط على الفأر، فأكله ولم تشفع له عشرة طالت ولا اختلاط دام .

وتوسعوا فى أمر الاختلاط ، فجعلوه فى المرحلة الابتدائية ، وهى عند البعض قد تضم بعض سنوات المراهقة ، وجعلوه فى المرحلة الثانوية، وهو أخطر ما يكون .

وتزداد المهزلة حين يجعلون على هؤلاء المراهقين مدرسات ؛ لتمتد النيران ما بين التلاميذ والمدرسات ، فتنهدم قيمة احترام المدرس مع ما ينهدم من قيم بالاختلاط أو مع الاختلاط .

وتأكيدا لهذا السبيل الآثم ، تحرص كثير سن المؤلفات على التهوين من مقدمات الزنا التى لابد أن تفضى إليه إلا من عصم ربى ، وقليل ما هم .

ففى أحد كتب مؤسسة فرانكلين الأمريكية التى تنشر فى أحد البلاد الإسلامية يقول : «فبدلا من فصل البنين عن البنات يجب أن نعمل على إشراكهم معا فى الأعمال الممتعة ومواقف اللعب ، وإذا حدث استلطاف بين بعض البنين والبنات، فينبغى النظر إليه على أنه نوع من الصداقة وليس غراما أو عشقا.

وعبثا تحاول المؤسسة الأمريكية أن تخلع عن الحرام اسم الحرام . وأن تخلع عليه

ثوب «البراءة» الكاذب .

وفى مكان آخر ولنفس المؤسسة :

«إن خروج الفتيات فى صحبة الفتيان من الأمور الطبيعية التى يستطيع معظم الآباء تقبلها فى الوقت المناسب على أى حال ، باعتبارها جانبا من جوانب النمو الجسمى للمراهق . وفى مكان آخر :

وفى كل علاقة بين فتى وفتاة يشعر كل منهما فى بعض الأحيان بدافع يحفزه على التعبير عن حبه وتقديره للآخر بلمسة أو ضغطة على اليد أو قبلة ، والكشف عن المشاعر بهذه الطريقة والاستجابة لها أمر طبعى .

وأخيرا :

فالشوق إلى القبلة أو بعض الغزل الرقيق، أو الإنصات إلى قصة فيها تلميحات جنسية، هذه ليست أموراً شائنة»[1].

وقد سبق خطوة الاختلاط فى الدول الإسلامية المتقدمة ، خطوة تمر بها ـ الآن ـ الدول الإسلامية «غير المتقدمة» وهو التوسع فى تعليم البنات .

وتعليم البنت فى حدِّ ذاته قد لا يكون هو مصدر قلق ، لكن التوسع فى هذا التعليم من غير تخطيط إسلامى، بل ولا حتى فطرى .. هو مصدر القلق كله.

ذلك أن إنكار اختلاف فطرة المرأة عن الرجل غباء أو تغابٍ ، فلا شك فى هذا الاختلاف.

ومن ثم وجب اختلاف المناهج وفقا لهذا الاختلاف ، ووجب اختلاف مجالات العمل كذلك تبعا لهذا الاختلاف .

ذلك ، لو كان الذين يخططون لتعليم البنات يصدرون عن فهم إسلامى ، أو

(١) حصوننا مهددة من داخلها للدكتور محمد محمد حسين ، مكتبة المنار الإسلامية - الكويت .

حتى عن فهم ذاتى مبرأ من التدخل الأجنبى .

أما أن يصير الأمر مجرد مزاحمة للبنت مع الولد بحجة التمدين والتحضر حتى لو صادم ذلك فطرتها وطبيعتها ، بحيث ترى البنت مهندسة وصانعة وعاملة فى الأفران ، فذاك لا يقره عاقل .

كذلك يسبق خطوة الاختلاط خطوة أخرى ، هو تعرية المرأة « المسلمة » أو كشف الحجاب عنها، كذلك تحت دعاوى التحرر والتمدين، وما حدث فى الكويت الشقيقة منذ سنوات أقرب مثل.

لقد كانت الكويت ـ وهى جزء من الجزيرة العربية ـ تفرض عادتها الإسلامية الحجاب على المرأة .

وتغض النظر عن الخلاف الفقهى فى صدد كشف وجه المرأة ، فإن الأمر لم يقتصر على كشف الوجه ، بل كشفت المحارم التى لا خلاف على حرمتها.

وكان آخر ما قدمته الكويت المسلمة إحراجا لضيف كبير مسلم ، أن رقصت فتياتها المراهقات بملابس قصيرة تكشف عن أفخاذهن ، وبأداء متكسر مثير أمام الضيوف الكبار، الذين امتدت بهم الجلسة إلى ما بعد منتصف الليل .

وهكذا يسبق التحرر الاختلاط ؛ ليزول الحياء قبل الاختلاط ، فيسقط آخر مانع يحول دون اشتعال النار .

وهكذا ينزوى التعليم الدينى مع ذلك الضجيج الهائل من حوله ، ومع ذلك التخريب الهائل من داخله ، وهكذا مثلت «الازدواجية» فى التعليم تكتيكا مرحليا «مارسه أعداء الإسلام فى الشرق الإسلامى المسكين ».

وترتب على هذا الازدواج بالوضع الذى أشرنا إليه نتائج خطيرة:

١ - فهى أولا : أدت إلى تمزيق المجتمع الإسلامى بين طائفة العلمانيين الواردين

من الخارج أو المتخرجين فى الداخل .

٢- وهى ثانيا : أدت إلى إبعاد العلمانيين عن الإسلام .

٣- وهى ثالثا : جعلت الأمر إلى أيدى هؤلاء العلمانيين .

٤-وهى رابعا : أدت إلى الازدراء من شأن الدين والازدراء بطلابه ومعلميه.

ثانيا : العلمانية فى الإعلام:

العلمانية فى التعليم أقدم وأخطر .

والعلمانية فى الإعلام أعم وأشمل ، ومن هنا تكمن خطورتها .

إن التعليم قد يخاطب الآلاف بمناهجه.

لكن الإعلام يخاطب الملايين ببرامجه.

وأكثر هذه الملايين ساذجة تؤثر فيها الكلمة ، مقروءة أو مسموعة أو منظورة .

فإن كانت طيبة كانت كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

وإن كانت خبيثة كانت كشجرة خبيثة ، اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ومن هنا ، كان اهتمام الإسلام بالكلمة وأمانتها .

فإما أن ترتفع بالمؤمن إلى معية سيد الشهداء.

وإما أن تهوى بقائلها فى النار سبعين خريفا .

وللأسف فإننا نستطيع باطمئنان أن نقرر :

أن وسائل الإعلام المختلفة من صحافة ، وإذاعة ، وتلفزيون ، وسينما مسخرة اليوم لإشاعة الفاحشة ، والإغراء بالجريمة ، والسعى بالفساد فى الأرض ، بما يترتب على ذلك من خلخلة للعقيدة ، وتحطيم للأخلاق والقيم والمثل وهما (العقيدة والأخلاق) أساس لبناء الإسلام ، فإذا انهدم الأساس فكيف يقوم البناء؟.

وتتفاوت درجات الفساد فى وسائل الإعلام تبعا لهذه الوسائل ، فهى فى السينما أشد.

يليها التلفزيون ، والإذاعة ، والصحافة .

كذلك تتفاوت درجات الفساد بين أقطار الإسلام المختلفة.

قد يقول قائل: ولربما كان الفساد فى بلاد لا تجاهر به أشد من بلاد أخرى تجاهر به ، ففيها الزنى واللواط وأكل الربا وشرب الخمر ، وغير ذلك من المنكرات .

ونقول :ولقد يكون هذا صحيحا لا يمارى فيه عالم ، ولقد يكون علاجه واجبا ، ليس عن طريق الحدود وحدها ، وإنما عن طريق التربية الصحيحة والعلاج الاجتماعى بوسائله المختلفة ؛ بالقدوة والأخذ على يد المفسدين مهما كان مركزهم ، حتى لا تصير الحدود قصرا على الضعيف دون الشريف .

ومع ذلك ، فلا يبرر أن تجهر بلاد بالفاحشة ، فإن فى ذلك إشاعة لها أيما إشاعة ، أو تتعالن بلاد بالمعصية ، فإن فى ذلك إغراء بها أيما إغراء ، وهذا يساعد على سرعة الانتشار، ويهون الجريمة على من يتردد فى اقترافها ؛ ولذا كانت الحدود ردعا لهذا الشر أن يسرى أو يستشرى .

وليعلم الناس ما تفعله الصحافة فى بلاد المسلمين ، نختار أربعة أمثلة من تواريخ مختلفة :

أ- مقال نشر بجريدة السياسة الأسبوعية بالقاهرة سنة ١٩٢٦، ذكر فيه كاتب المقال أن بعض الفتيات التركيات يشبهن فتيات أوربا ، وقد تلقى بعضهن العلم فى الكلية الأمريكية - بالقسطنطينية وذكرت واحدة منهن «أن المرأة التركية اليوم حرة ، فلن تسير فى الطرقات فى ظلام ، وأننا نعيش اليوم مثل نسائكم الإنجليزيات ، نلبس أحدث الأزياء الأوربية والأمريكية ، ونرقص ، ونذخن ، ونسافر، وننتقل بغير أزواجنا » ويعلق كاتب الجريدة .. ولا يسع كل محب لتركيا إلا أن يغبطها على

هذه الخطوات .

ب- فى سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٦) استضافت أسرة تحرير الأهرام فيلسوف الوجودية سارتر وعشيقته التى تعيش معه فى الحرام (سيمون دى بوفوار) ، ويجهر بهذا الفجور والفساد .

ويدعى الرجال ويدعى النساء ليروا هذه القدوة القبيحة السيئة ، وليسمعوا عنها السم الزعاف .

جـ- ويبلغ الفجور فى السبعينيات أقصى مداه حين تنشر جريدة الأهرام عن ضبط بيوت للدعارة ، فيها نساء من بيوتات لم يكن يسمع عنها من قبل سوء .

وتنشر عن ضبط تلميذات صغيرات فى هذه البيوت .

ثم تهون هذه الجريمة الفظيعة تحت عناوين مثيرة .

تلميذة فى شقة مفروشة ، افتحوا أبواب الاختلاط فى كل مراحل التعليم ، وأطلقوا الحرية للشباب تحت رقابة الأسرة والمدرسة ، ولا تهمنا البنت التى تنحرف من أجل فستان [١] .

د- وفى أحد أعداد مجلة النهضة الكويتية سنة ١٩٧٦ تحقيق صحفى فى سبع صفحات كبيرة مطرزة بصور مثيرة لفتيات شبه عاريات،وتحت عناوين بارزة كتب بالخط العريض: حصاد المعاكسات فى أسواق الكويت ـ مغازلات، معاكسات، همسات ،نظرات، إشارات، أرقام تليفونات ـ سألت إحدى الصحفيات بعض فتيات الكويت اللاتى أدلين بأسمائهن كاملة ، وقصص ما يحدث لهن من تحرشات بأسلوب مكشوف حتى إن إحداهن ... لم تستحى أن تصرح أن بائع الأحذية فى كل مرة يقيس لها حذاء أو يخلعه يتحسس ساقيها، كما أن بائع الملابس يمسك خصرها

(١) جريدة الأهرام ١٣/ ٣/ ١٩٧٦ .

بكلتا يديه وتحكى أخرى ... أن الملابس تكشف كل شىء (لأنها شفافة) وخاصة عند طلوع الدرج داخل المحل؛ لأن الأضواء توضع على الدرج فتكشف كل شىء فى جسمها ، هذا بالإضافة إلى زجاجة العطر التى سكبتها على صدرها ، إلى جانب المكياج الصارخ الذى تزين به وجهها ، ولا أدرى لماذا تحرص على مداراته بطرف العباءة (الشفافة) بعد كل هذه الزينة التى وضعتها عليه ؟ ولا ندرى ماذا يستفيده القارئ المسلم من مثل هذه التحقيقات ؟ إلا تزيين الانحلال والتهوين من أمره وتعليم من يتعلم .

ونختم القول بالتنويه بما أوصى به المؤتمر العالمى لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة المنعقد فى عام ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧م بمدينة رسول ﷺ ، منددا بحال الإعلام فى البلاد الإسلامية:

« ويندد المؤتمر بالهوة السحيقة التى تردى فيها إعلامنا ـ ولا يزال يتردى ، عن علم من القائمين به أو عليه أو عن جهل منهم ، فبدلا من أن يكون الإعلام فى البلاد الإسلامية منبر دعوة للخير ، ومنار إشعاع للحق صار صوت إفساد وسوط عذاب ، وسكت القادة فأقروا بسكوتهم أو جاوزوا ذلك فشجعوا وحموا ، وزلزل الناس فى إيمانهم وقيمهم ومثلهم ، ولم يعد الأمر يحتمل السكوت من الدعاة إلى الحق ».

ثالثا : العلمانية فى القانون :

«حدٌّ يعمل به فى الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحا » هذا مثل لأهمية الجانب القانونى فى الإسلام .

وكما تكون طاعة الله فى الشعائر ، لابد أن تكون كذلك فى الشرائع ، وكما يكون إشراك بالله فى الشعائر ، يكون كذلك إشراك بالله فى الشرائع .

هذه كتلك؛ لأن كلا من عند الله .

والرهب لازم ، كالرغب فى إقامة شريعة الله .

والرهبة تولدها السلطة .

والرغبة تولدها القدوة .

والاثنان يتحققان إذا كان الحكم للإسلام ، وكان حكامه من المسلمين ، من أجل ذلك كله كان حرص أعداء الإسلام على إبعاده عن مجال السلطة ليحرموا الإسلام الرهبة والرغبة .

ومن ثم ليبقى مجرد هيكل أقرب إلى الموت منه إلى الحياة .. ولقد وضح ذلك مما فعلوه فى العالم الإسلامى .

ولنأخذ ـ مثلا ـ تركيا :

حين فكروا فى إبعادها عن الإسلام بذلوا جهودهم « لعلمنة » القانون ، وتدرجوا ، ففى كل عشر سنوات يتم علمنة جانب من جوانب القانون منذ سنة ١٢٥٦ هـ (١٨٤٠م) ،ثم صارت كل حوالى عشرين سنة، حتى تمت أكبر علمنة بإعلان إلغاء الخلافة سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤م) .

وفى مصر :

اقترنت «علمنة» القانون بالاحتلال الأجنبى، فكانت أول علمنة سنة ١٣٠١هـ (١٨٨٣م) بعد الاحتلال بسنة واحدة ، واقترن إلغاء الامتيازات الأجنبية بشرط الأجانب الاستمداد من التشريع الغربي بعيدا عن الشريعة الإسلامية ، ثم اقترن إلغاء النص على أن دين الدولة هو الإسلام فى دستور مصر المؤقت سنة ١٩٥٨ ، ثم فى ميثاق العمل الوطنى سنة ١٩٦٢ اقترن بأحداث داخلية يعرف عنها الكثير الكثير .

وأكثر الدول الإسلامية ـ بكل أسف ـ تمت فيها علمنة القانون .

والدول التى لا تزال فيها بقايا تطبيق الشريعة تحيط بها المؤامرات من كل جانب لعلمنة القانون ، ويجرى التمهيد لهذه العلمنة بما يجرى من «علمنة التعليم » وعلمنة

الإعلام ، فيوجد جيل علمانى يقدس القانون العلمانى ويولد -نتيجة الإعلام - رأى علمانى ، يتقبل مثل هذه العلمنة .

وهكذا عملت العلمانية من خلال التعليم ، ومن خلال الإعلام ومن خلال القانون .

ولننظر كيف عملت « القومية » فى مواجهة الدين .

obeikandl.com

ثانيا : القومية

على عهد رسول الله ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار على أساس من آصرة الإسلام ، وليس على أساس أى آصرة أخرى ، آخى بين بلال بن رباح وخالد أبى رويحة الخثعمى، وبين مولاه زيد، وعمه الحمزة بن عبد المطلب ، وبين خارجة بن زيد، وأبى بكر الصديق، وبين عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان .

ولما أراد أحد المسلمين أن يثيرها عصبية ونادى : يا للأنصار ، فنادى الآخر : يا للمهاجرين،قال رسول الله ﷺ غاضبا : «**أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم**» ! وفى حديثه ﷺ أكد المعنى فقال :«**ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية أو يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبية فقتل ، فقتلته جاهلية**» .

وكان من آخر وصاياه يوم حجة الوداع : « **كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى !!**».

وعلى عهد الراشدين ـ رضوان الله عليهم ـ ضمت أرض الإسلام أكبر إمبراطوريتين على وجه الأرض؛ الروم والفرس،فما فضل عربى على عجمى لعروبته أو جنسه أو لونه، إنما كان الفضل بعد التقوى للعمل الصالح،والعمل الصالح وحده،وعرفت علوم الإسلام فى فروعها المختلفة فقهاء وعلماء من الأمصار ليس فيهم من العرب إلا النزر اليسير[1] .

---

(١)قال ابن أبى ليلى:قال لى عيسى بن موسى وكان ديانا شديد العصبية للعرب:من كان فقيه البصرة؟ قلت : الحسن بن الحسن ، قال : ثم من؟ قلت : محمد بن سيرين ، قال : فما هما ؟قلت مولیان .

قال :فمن كان فقهاء مكة ؟ قلت : عطاء بن رباح، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وسليمان بن يسار، قال فما هؤلاء ؟ قلت : موالٍ .قال : فمن كان فقهاء المدينة ؟قلت : زيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن أبى نجيح ، قال: فما هؤلاء ؟قلت : موالٍ ، فتغير لونه ثم قال :

فمن كان أفقه أهل قباء؟قلت:ربيعة الرأى وابن أبى الزناد،قال:فما كانا؟قلت: من موالى فما زال يسأله عن فقهاء اليمن وخراسان والشام،وهو يجيبه بأسماء من الموالى،حتى بلغ فقهاء الكوفة فقال:والله =

وفى الحديث، عرفت أوربا فكرة القومية، ثم صارت متخلفة عن العصر، تشير إلى القرن الثامن عشر أو التاسع عشر ، وصارت دعواها بذلك دعوى رجعية لكن الأمة العربية ابتليت بها .

عرفت :ميشيل عفلق زعيما لحزب البعث العربى الاشتراكى .

وأنطون سعادة زعيما للقوميين السوريين .

وجورج حبش زعيما للقوميين العرب .

وقسطنطين زريق أحد الزعماء الآخرين ! [1] .

وهكذا لم تعرف القومية العربية زعيما ممن يحمل أسماء المسلمين إلا واحدا لا يزال عمله فى ذمة التاريخ [2] .

وعرض الكاتبون فى القوميات لما تقوم عليه القوميات من أسس ليكشفوا عن عدم صلاحيتها ، فعرضوا لنظرية العرق التى قامت عليها القومية الألمانية، وما يزعمون عن العرق الآرى الممتاز؛ ليكشفوا عن أن الألمان ليسوا شعبا خالصا ، بل خالط غيره .

وكذلك الشعب العربى ، خالط الروم والفرس والأتراك .

وفى كتاب كفاحى لهتلر جعل الأمة العربية فى الدرجة ١٣ !

وعلى نفس المنوال عنصر اللغة .

فسويسرا تضم ٣ لغات .

والقارة الهندية تضم ٣٠٠ لغة .

= لولا خوفه لقلت:الحكم بن عقبة وعمار بن أبى سليمان، ولكن رأيت فيه الشر فقلت: إبراهيم النخعى والشعبى ، قال: فما كانا ؟ قلت: عربيان .

(١)يشير معرب كتاب لعبة الأمم إلى أن : أكثر من تسعين بالمائة من قادة حركة القومية العربية الأقحاح هم من خريجى الجامعة الأمريكية فى بيروت ، ولا تزال هذه الجامعة (وكانت تسمى سابقا الكلية الإنجيلية السورية) ناشطة فى تقديم مثل هذه الخدمات لدول منطقة الشرق الأوسط .. ويشير نفس المؤلف إلى أسماء زعماء القومية وكلهم من المسيحيين !

(٢) انظر كتاب : فى الزنزانة للدكتور جريشة ، بعض هذه الأعمال .

وكذا سائر عناصر القومية من تاريخ وأرض ومصالح مشتركة ليس فيها عنصر خالص تقوم عليه القومية . هذا كله بالبحث العلمى الهادئ .

فإذا أضفنا إلى ذلك ما لابس إثارة القوميات من أحداث تاريخية ، لبان ما قدمنا له من أن القومية أحد العناصر التى استخدمها أعداء الإسلام لإبعاد الأمة عن دينها .

إثارة القومية الطورانية فى تركيا اقترنت بتمزيق تركيا وإبعادها عن الإسلام ، وإثارة القومية العربية فى البلاد العربية اقترنت بتمزيق دولة الخلافة،ومؤامرات لورانس ومكماهون،قصدا إلى القضاء على الجسد الإسلامى الذى أسموه يومئذ بالرجل المريض !!

حتى الجامعة العربية ، كانت كما يعرف كل من عاصر أحداث العصر من صناعة وزير خارجية الإنجليز ! لتكون بديلا عن الجامعة الإسلامية، وفى كتابات حديثة لكتاب غربيين أشاروا إلى أن القومية العربية التى رفع رايتها فى مصر زعيم كبير ، كانت بديلا مهماً عن الشعار الإسلامى الذى كان يهدد بثورة فى المنطقة ، فكان الانقلاب العسكرى امتصاصا لمشاعر الأمة المتوثبة للإسلام ! [1] .

نتائج الدعوة القومية :

وهكذا ، فإن تيار الفكرة القومية كانت مهمته إقصاء الإسلام وتفريغ القضية السياسية والاجتماعية بوجه عام من المحتوى الإسلامى ، وإحلال فلسفة أخرى وعقيدة أخرى محل عقيدته ، واستبدال رابطة أخرى برابطته لعزل الشعوب الإسلامية بعضها عن بعض عزلا نهائيا ، بحيث تكون صلة بعضها ببعض كصلتها بأية شعب من الشعوب الأخرى التى تدين بالوثنية أو الماركسية أو غيرها ، والتى لم تكن تربطها بها أية رابطة ، وبذلك تنقطع الصلات بين الشعوب الإسلامية ، وتضعف روابط الثقافة المشتركة ولغة القرآن ، والقيم الخلقية ، ويقضى على الأخوة الإسلامية .

(١) لعبة الأمم لمايلزكوبلاند ـ ص ٦٣ ـ ٦٥ .

فما دام باب القومية قد فتح على المسلمين ، فقد كان طبيعيا أن تنتهى إلى ظهور القومية الكردية فى العراق والبنغالية فى باكستان ، بعد أن أوصد الباب الذى يصل المسلمين بعضهم ببعض وهو الإسلام .

وقد شجعت الدول الأوربية الكبرى على ظهور القومية العربية فى صورتها العلمانية لتحقيق مطامعها فى احتلال الشرق الإسلامى .

وخاصة بريطانيا وفرنسا ، يقول (لورانس) منفذ سياسة بريطانيا أثناء الحرب العالمية الأولى : « وأخذت طول الطريق أفكر فى سوريا وفى الحج ، وأتساءل : هل تتغلب القومية ذات يوم على النزعة الدينية ، وهل يغلب الاعتقاد الوطنى الاعتقاد الدينى ؟ وبمعنى أصح : هل تحل المثل العليا السياسية محل الوحى والإلهام ، وتستبدل سوريا بمثلها الأعلى الدينى مثلها الأعلى الوطنى ؟ هذا ما كان يجول فى خاطرى طول الطريق » [1] .

ومعلوم أن الثورة العربية على الأتراك قامت بتأييد بريطانيا ودعمها الأدبى والمادى ، ودعم حليفتها فرنسا ، وقد ثبت أن عددا من الزعماء كانوا متصلين بالقنصليات الأجنبية لتلقى هذا الدعم .

وينبه (جب) الأوربيين إلى أن العالم الإسلامى المترامى الأطراف يحيط بأوربا إحاطة محكمة تعزلها عن العالم،ويشير إلى أن وحدة الحضارة الإسلامية تمحو من الأذهان حيثما حلت كل ما يتصل بالتاريخ القومى؛ لتحل محله الاعتزاز بالتاريخ الإسلامى والتقاليد الإسلامية .

وحيث يتحدث عن الحركات القومية التى أيدتها دعايات الحلفاء القومية أثناء الحرب العالمية الأولى ، ينبه إلى أن هذا النصر التى حققته الاتجاهات القومية فى الشرق الإسلامى يجب ألا يصرف الغرب عن الانتباه إلى تيار المعارضة الإسلامية

---

(١) لورانس : أعمدة الحكم السبعة .

الخفى، الذى يعارض فى تفتيت الوحدة الإسلامية إلى قوميات علمانية ، مبينا أن هذه المعارضة الإسلامية هى أشد قوة فى البلاد العربية .

ويقول (جب) فى صراحة تامة :«وقد كان من أهم مظاهر فرنجة العالم الإسلامى تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة التى ازدهرت فى البلاد المختلفة التى يشغلها المسلمون ـ الآن، فمثل هذا الاهتمام موجود فى تركيا ومصر وإندونيسيا والعراق وفارس، وقد تكون أهميته محصورة الآن فى تقوية شعور العداء لأوربا ، ولكن من الممكن أن يلعب فى المستقبل دورا مهما فى تقوية الوطنية الشعوبية وتدعيم مقوماتها » [1] .

وهذا يعلل لنا عطف حكومات الاحتلال الغربية على كل مشاريع الحكومات الوطنية فى الشرق الإسلامى والعربى منه ، خاصة التى من شأنها تقوية الشعوبية فيها ، وتعميق الخطوط التى تفرق بين هذه الأوطان الجديدة ، مثل الاهتمام بتدريس التاريخ القديم السابق على الإسلام لتلاميذ المدارس وأخذهم بتقديسه،والاستعانة على ذلك بالأناشيد ، ومثل خلق أعياد محلية غير الأعياد الدينية التى تلتقى فيها قلوب المسلمين ومشاعرهم على الاحتفال بها ، ومثل العناية بتمييز كل بلد من هذه البلاد بزى خاص ـ ولا سيما غطاء الرأس ـ مما يترتب عليه تمييز كل منها بطابع خاص، بعد أن كانت تشترك فى كثير من مظاهرة [2] .

بين العروبة والإسلام وفضل العرب :

إذا كنا ننكر المبادئ العنصرية والقومية،فإنا نرحب باتحاد العرب وتعاونهم وتمتين أواصر القربى بينهم على أساس الإسلام، فالعرب هم مادة الإسلام ، بلسانهم نزل القرآن الكريم ، ومنهم اصطفى الله ـ عز وجل ـ الرسول الذى بعثه إلى

(١) فى كتاب : وجهة الإسلام .
(٢) الاتجاهات الوطنية للدكتور محمد حسين .

الناس كافة بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله؛ ولهذا فلا يمكن فصل العروبة عن الإسلام، أو فصل الإسلام عن العروبة، وليس عجبا أن يكون تفكير العربى الصادق فى عروبته تفكيرا إسلاميا .

ومن هنا كان بغض جنس العرب ومعاداتهم كفرًا أو سببا للكفر،وهذا معناه أن العرب أفضل الأمم وأن محبتهم سبب قوة الإيمان كما يقول أبو العباس ابن تيمية ـ رحمه الله ـ مستدلا بحديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما،قال رسول الله ﷺ : «**حب أبى بكر وعمر من الإيمان وبغضهما من الكفر، وحب العرب من الإيمان وبغضهم من الكفر** »[1] .

كما جاء فى حديث آخر : « ... **فمن أحب العرب فبحبى أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم** ».

وقوله ﷺ لسلمان الفارسى رضي الله عنه : « **يا سلمان ، لا تبغضنى فتفارق دينك** »، فقال سلمان : يا رسول الله ، كيف أبغضك وبك هدانى الله ؟! فقال ﷺ :« **تبغض العرب فتبغضنى** ».

ولكن لا يلزم من الاعتراف بفضل العرب أن يجعلوا عمادا يتكتل حوله ويوالى عليه ويعادى عليه ، وإنما ذلك من حق الإسلام الذى أعزهم الله به، وأحيا ذكرهم ورفع شأنهم ، فهذا لون وهذا لون، ثم هذا الفضل الذى امتازوا به على غيرهم، وما مَنَّ الله به عليهم من فصاحة اللسان ونزول القرآن الكريم بلغتهم، وإرسال الرسول العام بلسانهم، ليس مما يقدمهم عند الله فى الآخرة ولا يوجب لهم النجاة إذا لم يؤمنوا كما يقول فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز[2].

موقف الإسلام من الدعوة القومية :

إن مبادئ الإسلام ومبادئ الغرب متباينة كليا فى باب القومية ، فالذى يعتبره

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص (١٥٦) (القرب فى محبة العرب) للحافظ العراقى .
(٢) نقد القومية العربية ص٢٠ ،٢١ .

الغربيون مصدر القوة هو مصدر الضعف والخذلان عند الأمة الإسلامية ، كما يقول شاعر الإسلام محمد إقبال : « لا تقس أمم الغرب على أمتك ، فإن أمة الرسول الهاشمي ﷺ فريدة فى تركيبها أولئك إنما يعتقدون باجتماعهم على الوطن والنسل ، ولكن إنما يستحكم اجتماعك أيها المسلم بقوة الدين ».

لهذا كان من غير المعقول ولا من الممكن،كما يقول الأستاذ المودودى أن توجد فى الأمة الإسلامية قوميات على أساس الألوان والأجناس واللغات والأوطان ، كما لا يمكن أن توجد داخل دولة دول كثيرة مختلفة. من كان مسلما وأراد أن يبقى على إسلامه، فلابد له أن يبطل فى نفسه الشعور بأى أساس غير أساس الإسلام،ويقطع العلاقات والروابط القائمة على أساس اللون والتراب .

وأخوف ما كان يخاف الرسول ﷺ على المسلمين أن تظهر فيهم العصبيات الجاهلية فتفرق كلمتهم ، فكا ن يقول لأصحابه ـ دائما :«**لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض** ».

ولا يمكن بقاء الرابطة الإسلامية مع نشوء الشعور بالقومية العنصرية ، ومن المغالطة الزعم بأن إحداهما تساير الأخرى ولا تضرها ، فعندما بدأ المسلمون فى هذا الزمان يتغنون بالعنصرية والوطنية فى كل قطر من أقطارهم متأثرين بالأوربيين ، صار العربى يتغنى بعروبته ، والمصرى ينتسب إلى الفراعنة ، والتركى يتيه إعجابا بتركيته ، ويحاول أن يصل نسبه بهولاكو وجنكيز ، والفارسى يقول لشدة انفعاله بنعرته القومية : إنه لم يكن من تأثير (الإمبراطورية العربية) إلا أن صار على والحسن والحسين ـ ﷺ ـ أبطاله، وإلا لكان رستم وإسفندار وأنوشروان أحق أن يكونوا أبطاله القوميين فى حقيقة الأمر وقد بدأ ينشأ فى الهند مسلمون يفخرون بالانتساب إلى القومية الهندية ، بل فيهم من يريدون أن ينقطعوا عن ماء زمزم ويتصلوا بماء نهر جنجا ، وفيهم من تبعثهم أهواؤهم على اتخاذ (بهيم) و (أرجن)

و(رام ها) أبطال الهندوس القدماء أبطالهم القوميين، وليس هذا كله من هؤلاء السفهاء الراكبين رؤوسهم إلا لأنهم ما عرفوا ما يملكون من الحضارة وما يملكه الغرب ، وما تبينوا ما بينهما من الفرق الجذرى ؛ لأن عيونهم كليلة عن المبادئ والحقائق فلا ينظرون إلا إلى السطح، ويبهر عقولهم ما يجدونه بارزا عليه من الفقاقيع والألوان الظاهرة ولا يعلمون أن الشيء الذى هو ماء الحياة للقومية هو نفسه ، السم الزعاف للرابطة الإسلامية [1].

إن بطلان الدعوة إلى القومية العربية أو غيرها من القوميات مما هو معلوم من دين الإسلام بالضرورة ؛ لأنها منكر ظاهر ، وجاهلية نكراء ، وكيد سافر للإسلام وأهله ، وذلك من وجوه أربعة :

أولاً : لأنها تفرق بين المسلمين ، وتفصل المسلم العجمى عن أخيه العربى ، بل تفرق بين العرب أنفسهم وتقسمهم أحزابا ، فهى بذلك تخالف مقاصد الإسلام الذى يدعو إلى الاجتماع والوئام ، قال ـ تعالى : ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[آل عمران : ١٠٣].

ثانيًا :لأنها من أمر الجاهلية؛ فهى تدعو إلى غير الإسلام، وكل ما خرج عن دعوة الإسلام والقرآن من نسب وبلد أو جنس أو مذهب أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية ، كما يقول الشيخ ابن تيمية ـ رحمه الله ـ مستشهدا بقوله ﷺ : «**أبدعوى الجاهلية وأنا بين ظهوركم** » .. والنصوص فى ذلك كثيرة منها ما رواه مسلم أن النبى ﷺ قال :«**ليس منا من دعا إلى عصبية ، ليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من غضب لعصبية**»، وقوله : «**إن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ، ولا يفخر أحد على أحد**»، ولا ريب أن دعاة القومية يدعون إلى عصبية ويغضبون لعصبية ، ويقاتلون على عصبية ، ولا ريب ـ أيضا ـ أن الدعوة إلى القومية تدعو إلى البغى والفخر ، وإنما هى فكرة جاهلية تحمل أهلها على الفخر بها والتعصب لها .

---

(١) المودودى (بين الدعوة القومية والرابطة الإسلامية) ص ٦٨ .

والإسلام بخلاف ذلك ، فهو يدعو إلى التواضع والتقوى والتحاب فى الله ، وأن يكون المسلمون الصادقون من كل أجناس بنى آدم جسدا واحدا وبناءً واحدا يشد بعضه بعضا ،ويألم بعضه لبعض ، وفى الحديث الصحيح : «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**»، ويشبك بين أصابعه ، و «**مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**».

وفى حديث الحارث الأشعرى أن النبى ﷺ قال :«**وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن ، السمع ، والطاعة ، والجهاد ، والهجرة ، والجماعة ، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلى أن يراجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثى [1] جهنم** » قيل : يا رسول الله ، وإن صلى وصام ؟ قال : «**وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله**»، وهذا الحديث الصحيح من أوضح الأدلة وأبينها فى إبطال الدعوة إلى القومية، واعتبارها دعوة جاهلية يستحق دعاتها أن يكونوا من جثى جهنم .

ثالثًا : لأنها تؤدى إلى موالاة الكفار العرب وملاحدتهم من أبناء غير المسلمين، واتخاذهم بطانة والاستنصار بهم على أعداء القوميين من المسلمين وغيرهم ، وفى ذلك مخالفة لنص القرآن الكريم والسنة الدالة على وجوب بغض الكافرين ومعاداتهم وتحريم موالاتهم واتخاذهم بطانة،كقوله ـ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة :٥١].

والقوميون يدعون إلى التكتل حول القومية العربية ، فيوالون لأجل ذلك كل عربى من يهود ونصارى ومجوس ووثنيين وملاحدة وغيرهم تحت لواء القومية

(١) جمع جثوة ، وهى الشىء المجموع ،وقوم جثى جلوس (أ: هـ) لسان العرب : يقول شاعر القوميين:
سلام على كفر يوحد بيننا وأهلا وسهلا بعده بجهنم

العربية، ويقولون : إن نظامها لا يفرق بين عربى وعربى وإن تفرقت أديانهم، والله ـ عز وجل ـ يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة: ١-٤] ونظام القومية يقول : كلهم أولياء مسلمهم وكافرهم ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة :٤] وقال ـ تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة :٢٢] .

وشرع دعاة القومية يقول : أقصوا الدين عن القومية ، وافصلوا الدين عن الدولة، وتكتلوا حول أنفسكم وقوميتكم حتى تدركوا مصالحكم وتستردوا أمجادكم ، كأن الإسلام وقف فى طريقهم وحال بينهم وبين أمجادهم ، هذا والله هو الجهل والتلبيس وعكس القضية .

وكيف يجوز فى عقل عاقل أن يكون أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث وأضرابهم من صناديد الكفار فى عهد النبى ﷺ وبعده إلى يومنا هذا إخوانا وأولياء لأبى بكر وعثمان وعمر وعلى وسائر الصحابة ومن سلك سبيلهم إلى يومنا هذا؟ هذا والله أبطل الباطل وأعظم الجهل ، وشرع القومية ونظامها يوجب هذا ويقتضيه .

رابعًا : لأن الدعوة للقومية تفضى بالمجتمع إلى رفض حكم القرآن الكريم؛ لأن القوميين غير المسلمين لن يرضوا بتحكيم القرآن؛ فيوجب هذا لزعماء القومية أن يتخذوا أحكاما وضعية تخالف القرآن حتى يستوى مجتمع القومية فى تلك الأحكام [1].

(١) ابن باز : نقد القومية العربية (ص١٠ -٣٦) .

وأخيرا ، فينبغى ألا ننسى أن القومية قد اقترنت فى التاريخ الإسلامى الحديث بالعمالة للاستعمار ، كما اقترنت بالعداء للإسلام ، كما ظهر مما قدمناه من مؤامرة لورانس وأمثاله .

ثالثا : تحرير المرأة

كما كانت العلمانية شعارا خادعا ، يخفى وراءه الحرب على الدين .

وكما كانت القومية شعارا خادعا كذلك ، يستعمل فى مواجهة الدين .

فلقد رُفع هذا الشعار « تحرير المرأة » بقصد اجتذاب المرأة المسلمة واستخدامها حربا على دينها .

وأول من أوصى به أحد مؤتمرات التبشير .

وكان الهدف يومئذ تنصير المرأة المسلمة .

ثم تبعهم المستشرقون .

وتبعهم من تلقوا العلم والمعرفة على أيديهم ، وهم فى شرقنا الإسلامى كثير .

ماذا يقصدون بالتحرير ؟

التحرير لا يكون إلا من عبودية ..؟

فهل كانت المرأة المسلمة كذلك ؟

إن المسلم لا يعطى العبودية لمخلوق ، بل يعطيها للخالق وللخالق وحده ، ومن ثم فإنه أكثر الناس تحررا من عبودية المخاليق سواء كانت آدمية ، أو كانت مالا ، أو جاها ، أو سلطانا أو غير ذلك من متاع الحياة الدنيا .

والمرأة المسلمة لها ما للرجل : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة :٢٢٨]. هذه الدرجة ليست درجة العبودية أبدا ولن تكون ، لكنه أمر اقتضاه التنظيم ، أن يكون للسفينة ربان واحد لا ربانان ، وإلا لغرقت السفينة بمن فيها .

ولقد سبقت المسلمة غيرها من النساء .

فعرفت واجبها ، وعرفت حقها .

وكانت لها الشخصية القانونية المستقلة .

تتعامل باسمها دون حاجة إلى اعتماد تصرفها من أحد ، بينما ظلت المرأة الفرنسية لا تتعامل باسمها وحده بل لابد من إجازة الزوج لتصرفها ، وذلك إلى عهد قريب.

فماذا يعنى التحرر أو التحرير ؟ بعدما أعطاها الإسلام ما لم يعطها نظام آخر .

قالوا : إنه يعنى تحريرها من بيتها .

وتحريرها من زيها .

قلنا : وبماذا يخدمهم تحريرها من بيتها ،وتحريرها من زيها؟ وبعبارة أخرى:كيف يمكن من خلال هذا وذاك إبعاد الأمة عن الإسلام ؟

المرأة بلا شك نصف المجتمع .

وهى نصف خطير .

لأنه يؤدى رسالة خطيرة ، وإن غفل عنها الكثيرون .

إن الذين يتخرجون من المدارس والجامعات يمكن تعدادهم ، ويمكن أن يوجد غيرهم لم يتخرجوا من هذه أو تلك ، أما الجامعة التى لابد أن يتخرج منها كل مسلم بل كل إنسان فهى الأم .

فإن صلحت صلح خريجوها .

وإن فسدت فسد خريجوها .

وتحرير المرأة من بيتها يعنى إغلاق هذه الجامعة .

وإذا كانت هذه هى الجامعة الأولى التى خرجت من قبل تلك الأجيال العظيمة التى حملت إلينا الإسلام ، بل حملته للدنيا كلها ، فإن إغلاق هذه الجامعة يعنى انعدام الخريجين من ذلك الطراز ، ويعنى غلبة الخريجين من طراز آخر .

ولقد رأينا فى عصرنا بداية الثمار، رأينا ممن تسلطوا على فكر هذه الأمة ، بل

وعلى سلطانها من كانت أمه راقصة فى نادٍ ليلى .

وأخرى تعمل فى الغناء .

وليس بين الاثنين كبير اختلاف .

أما ماذا يعنى تحريرها من زيها ؟

فإنه يعنى : كشف ما أمر الله أن يستر ، وهتك ما أمر الله أن يصان .

يعنى : عرضا رخيصا لسلعة غالية ، صانها ربها ، وصانها الإسلام .

يعنى : إثارة اللحم والدم ، وهو أمر لا يستطيع أن ينكره إلا غبى أو متغاب .

فإذا أضفنا إلى تحرير المرأة من بيتها تحريرها من زيها ، كانت النتيجة ـ نتيجة الاثنين ـ غير نتيجة الواحد .

إن التحرر من البيت وحده ، قد يكون له النتيجة السلبية الخطيرة السابقة ، وهى حرمان الأمة من جامعة تخرج أجيالا .

وإن تحرر المرأة من زيها وحده ، قد تكون له النتيجة الإيجابية الخطيرة السابقة، وهى الإغراء بالفاحشة والدعوة إليها .

لكن التحريرين قد يعنيان فوق النتيجتين السابقتين مجتمعتين ، نتائج أخرى أخطر وأشد، إن أولها ـ بلا شك ـ انحلال المجتمع وسقوطه ، بسقوط قيمه وأخلاقه ومثله.

إن فرنسا ـ غير الإسلامية وصاحبة الإمبراطورية الكبيرة ـ سقطت تحت أقدام ألمانيا على مدى أسبوع واحد وهى ـ كما صرح رئيس وزرائها : إن فرنسا هزمها الانحلال قبل أن يهزمها الاحتلال .

فما بالنا بأمة إسلامية ، أساس نظامها عقيدة وأخلاق .

وما بالنا بأمة إسلامية لم تصل بعد من ناحية القوة المادية إلى ما وصلت إليه فرنسا أو أمريكا .

إن إشاعة الانحلال ـ فى الأمة الإسلامية ـ عن طريق تحرير المرأة من بيتها وزيها ـ يعنى أن الأمة الإسلامية، وهى بعد لم تقف على قدميها ، تماما كما يصاب الطفل بمرض خطير لا يستطيع أن يقاومه الرجل الكبير .

إنها جريمة كبرى ، وخيانة عظمى ، يقارفها كل من يدعو إلى هذا السبيل بالكلمة أو الصورة أو القدوة السيئة .

وفى عام ١٣٩٥هـ (١٩٧٥) طالب « جوزيف ريد» المدير العام لهيئة رعاية الأطفال بعقوبات شديدة ضد الأشخاص الذين يتاجرون ببيع الأطفال فى السوق السوداء ، حيث يباع سنويا خمسة آلاف طفل .. وكلهم ـ بكل أسف ـ جاؤوا من سفاح ويجرى الاتفاق مع الفتيات اللائى حملن بهن من غير زواج مقابل مبلغ من المال إلى جانب التكاليف الصحية والسكنية[1] .

أى جيل يكون ذلك الذى لا يعرف له أبا ولا يعرف له أما كذلك ..؟

أى ارتداد إلى عصر الرِّق ذلك الذى يباع فيه الأطفال ويشترون ؟

ترى ، هل يخرج لنا تحرر المرأة ـ فى شرقنا الإسلامى ـ ما أخرجه فى ذلك الغرب الصليبى..؟

وهل نقم منا الغرب أن كانت لنا روابط أسرية متينة يقوم عليها ـ بإذن الله ـ مجتمع متين..؟

أم نقم منا أن لنا دينا ،هو سر ابتعاثنا بين الحين والحين ، فخشى- هذه الابتعاثة ، ورغب لنا فى رقدة لا نهوض بعدها ولا قيام ؟

أما المرأة الريفية :

فلم يشأ المخططون لتغريب المسلمين أن يتركوها فى حالها وحيائها ، أصروا على

(١) مجلة المجتمع ـ العدد ٢٤٩ ـ ٢ جمادى الأولى ١٣٩٥ ـ ١٣ مايو سنة ١٩٧٥ نقلا عن : وكالة اليونيتدبريس ـ واشنطن .

أن يغزوها فى عقر دارها؛ ليذهبوا بما بقى من حيائها ، لتشارك أختها فى المدينة ما وصلت إليه من مدنية تحت ستار الأمم المتحدة انطلقت أمريكا تغزو الريف المسلم (باسم التربية الأساسية) .

أما ما هى التربية الأساسية ..؟

فهى كما عرفها أحد سدنتها الدكتور حامد عمار فى بحث ألقاه فى مؤتمر أمريكى : منهج من مناهج الإصلاح الاجتماعى لرفع مستوى المعيشة يؤكد قيمة العملية التربوية (وتغيير الأفكار والنزعات) .

وفى مكان آخر : تسعى التربية الأساسية إلى محاولة تغيير الأفكار والنزعات والاتجاهات [1] .

وفى سرس الليان ـ مصر ـ مركز للأمم المتحدة .

وفى قرى سوريا مراكز [2] وقد تكون وصلت إلى غيرها .

أما قضايا المرأة :

التى يتعمدون إثارتها بين الحين والحين؛ ليظهروا بمظهر المدافعين عن المرأة، المحبين لمصلحتها ، فزوبعة فى فنجان ، فنسبة الطلاق فى البلاد الإسلامية ضئيلة .

ونسبة التعدد أشد ضآلة .

بما لا يصح أن يرتفع الصوت معها كأنها مشكلة أو قضية [3] .

ولئن كانت هناك قضية أو مشكلة فهم سببها .

---

(١) حصوننا مهددة من داخلها – للدكتور محمد محمد حسين ـ الناشر مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت، ص ٤٨ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق .

(٣) فى حديث الحبيب بورقيبة بأهرام ٢٠/ ١٢/ ١٩٧٥ صرح الرئيس التونسى بأنه أصدر فى سنة ١٩٥٦ قانوناً بمنع تعدد الزوجات يعتبر التعدد جنحة يعاقب مرتكبها بالسجن لمدة سنة وغرامة مالية (٢٤٠ دينارا) .. وفى مقال شيخ الأزهر ذكر أن أحد التونسيين ضبط متلبسا بجريمة الزواج بثانية ، ولم يخلّ سبيله إلا بعد أن قرر أن هذه الثانية خليلة وليست زوجة ..وهكذا يطيب لبعض الحكام أن يحرموا ما أحل الله، وأن يحلوا ما حرم الله ألا ساء ما يزرون.

حين تسببوا بوسائل إعلامهم فى تصديع البيوت ، وفى إثارة المشاكل ، وحين تسببوا بدعاوى المساواة العريضة فى ألا يكون للبيت قوامة، وأن يكون فيه رئيسان الرجل والمرأة ، رئيسان فى مركب واحد يغرقانه (كما هو المثل) .

ثم حين ساندوا وساعدوا انحلال الأخلاق وانفلتت من قيود الدين ، فلم يعد الرجل يخشى الله فى المرأة ، ولم تعد المرأة تخشى الله فى الرجل .

فدب الخلاف والشقاق .

والحل ليس تحررا من الدين أو مزيدا من التحرر .

وإنما عودة إلى الدين والتزام بضوابطه ، وأخلاقه .

تصير المشكلة محلولة .

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات] ،﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ [الرعد:١١] .

هذه ، شعارات الغرب ، ووسائله .

لإحداث التغيير الاجتماعى فينا .

علمانية :

فى التعليم .

فى الإعلام .

فى القانون .

قوميات :

تمزق الأمة الواحدة .

وتمزق الدولة الواحدة .

تحرير المرأة :

ليسقط المجتمع فى حمأة الرذيلة .

obeikandl.com

ويقضى بنفسه على نفسه .

ولو نجحت هذه الدعوات ، فماذا يبقى لنا من الإسلام ..؟

وإذا نجحت فماذا يبقى فى مجتمع لم يقف بعد على قدميه ..؟

لقد استجاب لها الطامعون فى السلطة .

واستجاب لها الراغبون فى السقوط؛ لأنهم لا يقدرون على الارتفاع.

واستجاب لها السذج الجاهلون ، الذين حسبوها علاجا لهذا الشرق الإسلامى من تخلفه وعدم نهوضه .

وبقى أن ينهض العالمون الصادقون ؛ ليفضحوا المخطط الأثيم للقضاء على الإسلام والمسلمين .

بقى أن ينهض العالمون الصادقون ؛ ليقوموا بما قام به من قبل نبيهم ورسولهم محمد عليه الصلاة والسلام ، فهم خلفاؤه على ميراثه ، وهم الأمناء على رسالته ، وهم أمل الأمة الباقى بعد أن تردى غيرهم وسقط فى الشراك .

ولنكمل الصورة أو نقترب بها من الكمال ، نقدم لأمتنا بعضا مما فعل ويفعل الصليبيون ؟

المبحث الرابع

ما يفعل بنا الصليبيون

لسنا نثير أحقادا ..

فنحن على استعداد أن نعاملهم بما أمرنا به القرآن إن كفوا عن قتالنا وقتلنا، وتشريدنا وإخراجنا من ديارنا : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ [الممتحنة] فإن لم يكفوا عن قتالنا وقتلنا ، وعن إخراجنا وتشريدنا ، فهم الذين يثيرون الأحقاد ، وهم الذين يظلمون ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ [الشعراء] .

ولن نأتى من القديم .

لنذكر قومنا :

بما فعلوه يوم دخلوا بيت المقدس ، فذبحوا فيه سبعين ألفا من المسلمين حتى غاصت الخيل إلى صدورها فى دماء المسلمين [1].

ولا بما فعلوه فى الجزائر ، حين قتلوا مليون شهيد .

ولا بما يثيرون من أحقاد حين يحفظون جندهم:«أنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسرورا ؛ لأبذل دمى لسحق الأمة الملعونة ؛ لأحارب الدولة الإسلامية التى تجيز

(١) حاضر العالم الإسلامى، الكاتب الأمريكى ستودارد ص ٢٠٨ ، وحضارة العرب للكاتب الفرنسى غوستاف لوبون ص ٣٢٦-٣٣٠ .

البنات الأبكار للسلطان !! سأقاتل بكل قوتى لأمحو القرآن »[1] .

ولا بما يخططون له حين يقول أحد قادة فكرهم : « إن جزيرة العرب التى هى مهد الإسلام لم تزل نذير خطر للمسيحية » وحين يكمل آخر : « متى توار القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة التى لم يبعده عنها إلا ـ محمد ـ وكتابه ».

وحين يضع لهم أحد فلاسفتهم الحل النهائى، فيقترح أن يباد ثلثا المسلمين وينفى الثلث الثالث ، وتهدم الكعبة وينقل قبر الرسول ﷺ إلى متحف اللوفر[2].

سنترك هذا وغيره جانبا .

لنذكر قومنا بما يجرى ـ الآن ـ حيث يدعون أنهم تخلوا عن عصبيتهم أو صليبيتهم .

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة :

١ - فى الفلبين :

يتعرض المسلمون فى الفلبين لحرب إبادة لم يشهد لها التاريخ الحديث مثيلا .

فهم يجلون من قبل الصليبيين عن أراضيهم التى خصها الله بالخصب والنماء ، فإن رفضوا تعرضوا للإبادة من قوات الجيش الفلبينى التى لا تكتفى بمجرد الحرب الشريفة، بل تستعمل كل وسائل الإبادة الممنوعة مثل الغازات والنابالم ، ثم هى بعد ذلك تمثل بالجثث وتنتقم من الجرحى والأطفال والنساء .

وفى بيان للأخ عبد الباقى أبى بكر الأمين العام للعلاقات الخارجية لجبهة تحرير مورو مؤرخ ٢٩ مارس سنة ١٩٧٦ ،ينقل عن عمدة بانكوك محمد صالح عثمان قائد المجاهدين الذى لا يزال يقاوم الحصار منذ ١٦ شهرا، والآن ـ يعزز الجيش الحصار بـ ٨ كتائب جديدة غير قوات الطيران التى تقصف المنطقة ليلا ونهارا

(١) نشرت هذا النشيد مجلة الرابطة الشرقية ، السنة الثالثة ، العدد الثانى سنة ١٣٤٩ ، وقد تقدم هنا فى «مبحث التبشير» .

(٢) الفيلسوف الفرنسى كيمون .

والبواخر التى توجه ضرباتها المركزة من المدافع الفتاكة بدون انقطاع . وفى مرارة يختم كلامه : « يبدو لى أن المسلمين فى العالم لم يعرفوا حقيقة الوضع الذى نعيشه أو أنهم يتجاهلوننا»، ثم يقول أمين عام الجبهة : «وكنتيجة لهذه المعارك التى لا تزال دائرة للآن قتل ما لا يقل عن ٥٠,٠٠٠ مسلم» ، ثم يقول: دوماركوس يعلم أنه لا يستطيع أن ينال من المسلمين،ولكنه يريد أن يسرق المسلمين ويسرق أنظار العالم» [١] .

٢- فى إثيوبيا :

كان أسد الحبشة يضطهد المسلمين اضطهادا شديدا ، فرغم أنهم فى حقيقة الأمر يمثلون أغلبية البلاد ، فإن أحدا منهم لا يشترك فى الوزارة ولا فى الحكم ، بل ولا يسمح له بارتقاء منصب قيادى من أى لون ،ولقد صارت سجون إثيوبيا مقابر للمسلمين الذين يجأرون مما هم فيه ، ولأسد الحبشة هواية فى تعذيب المسلمين ، إنه يأمر بربط أيديهم إلى أرجلهم ، ويبقون على هذا الحال سنين حتى تتقوس ظهورهم، وتأخذ شكل المنحنى ، فإذا أفرج عنهم لم يستطيعوا المشى إلا على أربع !!

وكنا ننتظر بعدما أسقط الإمبراطور بانقلاب عسكرى أن النظام سوف يتغير،لكن الحقيقة أن القبضة العسكرية الحاكمة اشتدت على المسلمين حتى إن تقريرا عرض على المجلس العسكرى وتم إقراره يصرح: لقد حان الوقت أن نعرف جيدا من هم أعداؤنا، لقد اختار العرب وعملاؤهم أن يكونوا أعداءنا، وعلينا أن نعاملهم على هذا الأساس [٢].

إن المجازر التى يتعرض لها الثوار المسلمون فى إريتريا أمر يحرك كل ذى ضمير أو مروءة « لكن أين المروءة ؟» لقد خفت حتى اختفت .

(١) مجلة المجتمع ، العدد ٢٩٦ ، السنة السابعة ، ٢٠ ربيع الآخر ١٣٩٦ هـ ـ ١٠ من أبريل سنة ١٩٧٦م.
(٢) مجلة المجتمع ، العدد ٢٩٧ ، السنة السابعة ، ٢٧ من ربيع الآخر ١٣٩٦ هـ ١٦ من أبريل سنة ١٩٧٦م.

٣- المسلمون فى تايلاند :

نشرت مجلة الاعتصام القاهرية أنه :

أ- فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٧٦ قامت السلطات التايلاندية بهدم المسجد الكبير فى ولاية (بنارا) فى إطار مخطط يستهدف إزالة الآثار الإسلامية ، ومنع المسلمين من إقامة شعائرهم الدينية، وتشجيع ممارسة البوذيين لطقوسهم أمام المساجد،وبناء الأصنام فى كل المدن بالولايات الإسلامية الأربع فى فطانى .

ب ـ فى محافظة تلوية فى ولاية فطانى قام خمسة أشخاص من المنشأة البحرية التايلاندية بذبح خمسة من القرويين المسلمين الأحياء ، ومثلوا بجثتهم ، ثم قذفوا بها إلى البحر .

انطلقت مظاهرة احتجاج تعرضت لها القوات التايلاندية، سقط فيها عشرون شهيدا ، وجرح فيها المئات .

جـ ـ قامت العصابات التايلاندية فى الفترة الأخيرة بحرق إحدى قرى المسلمين فى محافظة (جاها بولاية جالا)، وتسعى العصابات البوذية إلى تشجيع هجرة البوذيين من شمال البلاد إلى الجنوب الإسلامى وإقامة مستعمرات فيها .

وبعد ، فهل نجح الغرب فى حربه الفكرية لنا ؟

أولا : بالنسبة للأسلوب

حين نجح انقلاب « كمال أتاتورك » العسكرى ، واستطاع أن يحقق ما كان الغرب يبغيه ، سلم الحلفاء فى اتفاقية لوزان باستقلال تركيا .

ذلك أنه بإلغاء الخلافة الإسلامية فى تركيا سنة ١٩٢٤، تحقق أمل بعيد للصليبية ومن وراءها ، حاربت من أجله دهرا طويلا .

وحاول كمال أتاتورك ـ بعد ذلك ـ سلخ تركيا من إسلامها ، بما فرضه من علمانية التعليم ، وعلمانية القانون ، وتحرير المرأة المسلمة التركية ، واختلاطها بالرجال فى كل المجالات ، ثم بما فرضه من إلغاء الحروف العربية واستبدالها باللاتينية، ومن محاولته تغيير الزى بالقوة .

وعد ذلك كله نجاحا !! شجع الغرب بعد ذلك على مزيد من الانقلابات العسكرية فى المنطقة الإسلامية بهدف إبقاء السيطرة أو القوة تابعة له؛ لتنفذ البرنامج أو المخطط الموضوع لإبعاد المسلمين عن دينهم وتحقق التغيير الاجتماعى أو ما يطلق عليه التغريب.

لكن المراقبين لمجريات الحوادث أحسوا بقصور التجربة الكمالية فى تركيزها على جانب القوة ، فنصحوا إلى جوارها بمحاولة تثبيت النتائج التى تصل إليها الانقلابات العسكرية وتعميقها فى الشعوب [1] ، وحسبنا ذلك انتقادا لانقلاب أتاتورك .

فإذا أضفنا إليه ، أن ما بلغه كمال أتاتورك لم يغير شيئا من الشعب التركى ، بل إنه على العكس من ذلك زاده استمساكا وتصميما ، وأنه لولا ظروف تركيا الدولية وإحاطة الأعداء بها من كل جانب، لكان للشعب من أتاتورك وغيره من الأتاتوركيين شأن آخر.

وهناك أمر لا يزال غائبا عن أولئك الذين يجرون التغيير ، أنهم يحاولون تبديل بناء ببناء .

---

(١) يشير إلى هذا المعنى مورو بيرجر ص ٣٢٥ حين يقول : وقد يتطلب تعميق هذا المعنى، وتحويله إلى رغبات وأذواق ومشارب تلقائية حرة عملية ثابتة طويلة الأخذ بوسائل أقل تعنيفا وتحكما وذلك بعد إشارة إلى التغيير الاجتماعى بالطريق العسكرى، كتاب العالم العربى اليوم ، المرجع السابق.

ونهدى إلى الغرب قول عصمت إينونو، وهو فى مرض موته : إننى لا أكاد أصدق ما أرى ، لقد بذلنا كل ما نستطيع لانتزاع الإسلام من نفوس الأتراك، وغرس مبادئ الحضارة الغربية مكانه، فإذا بنا نفاجأ بما لم نكن نتوقعه ، لقد غرسنا العلمانية فأثمرت الإسلام (المجتمع العدد ٢٥٦، ٢١ من جمادى الثانية ١٣٩٥هـ يوليو ١٩٧٥ م) .

يحاولون هدم البناء القديم ، وإقامة بناء جديد .

إن الانقلابات العسكرية تلجأ فى وسيلتها للتغيير إلى العنف والقوة ، والقانون الطبيعى أن كل فعل له رد فعل مساو له فى القوة ، ومضاد له فى الاتجاه .

والقانون الطبيعى كذلك أن زيادة الضغط تولد الانفجار .

ولعلَّهم يتغلبون على ذلك بالتغيير من حين لآخر ، امتصاصا للبخار الحبيس أن يؤدى إلى الأنفجار ، لكن التوقيت قد يخطئهم .

فيحدث الانفجار قبل التوقيت الذى ضربوه ، وعلى نحو لا يستطيعون السيطرة عليه ولا على نتائجه.

وأخيرا ، لقد انكشف هذا الأسلوب وتعرى ، وأساء العسكريون إلى أنفسهم وإلى الذين يعملون لحسابهم،أساؤوا أكثر مما أحسنوا .

وإذا كان الغرب - بحصافته - قد أدرك فشل الأسلوب القديم ، أسلوب احتلال الشعوب بالقوة العسكرية ، فعليه ـ بحصافته ـ أن يدرك قبل فوات الأوان فشل الأسلوب الجديد ، أسلوب تغيير الشعوب بالقوة العسكرية عن طريق الانقلابات العسكرية .

هذا عن الأسلوب الجديد ..

فماذا عن الهدف الجديد ..؟

ثانيا : بالنسبة للهدف

كان الغرب «ذكيا » حين أدرك ـ فى وقت مناسب أو متأخر ـ أن التنصير كهدف لحملته الفكرية المؤيدة بالقوة العسكرية ـ خارجية أو داخلية ـ أن ذلك الهدف فشل، وأنه برغم الجهود الضخمة البشرية والمالية والإعلامية والتعليمية ، فإن

النسبة التى تم تنصيرها من المسلمين نسبة تافهة ، يمكن أن تلحق بالعدم لتكون النتيجة سلبية تماما ..!

لذا كان البديل عن التنصير وإخراج المسلمين عن دينهم ، هو التغيير والاكتفاء بإبعاد المسلمين عن دينهم .

وهو ما تبذل له الجهود اليوم؛من تعليم علمانى،وإعلام علمانى،وقانون علمانى، وتحرير للمرأة من زيها ومن بيتها، ثم ما يبذل من حطٍ لقيمة الدين وقيمة علمائه ودعاته.

فهل يا ترى نجح الهدف الجديد ؟

نجاح أمر يتعلق بالأمم والشعوب ، لا يحكم عليه فى سنين ، ولا فى جيل ، فقد لا تظهر نتيجته إلا بعد أجيال، وقد تكون النتيجة الواضحة أن التغريب نجح فى إبعاد المسلمين عن دينهم بما فيه من قيم إيمانية ، وقيم أخلاقية ، وقيم قانونية، وأن المسلمين استبدلوا به قيم الغرب، حتى فى عاداتهم وفى لبسهم وفى طريقة أكلهم وشرابهم وفى تعاملهم و «إتيكيتهم » !

لكن هذه النتيجة مشكوك فى صحتها .

إنه على قدر عمق التغيير «الاجتماعى» الذى حدث استبدالا بقيم الإسلام قيم الغرب وتقاليده ، فلقد حدث على نفس العمق أكبر استمساكٍ وإصرارٍ على النظام الإسلامى عقيدة وأخلاقاً وعبادة وقانوناً، وماج العالم الإسلامى بحركات كثيرة عميقة وأحيانا عنيفة تدعو إلى الإسلام كمنهج متكامل للفرد والأسرة والمجتمع والدولة!

وبدا أن الجمر يتقد تحت الرماد .

فهل يتركونه حتى يكون نارا تحرق ، وفى نفس الوقت نورا يضى ؟

أم يحاولون أن يأخذوا نوره ، وأن يتقوا ناره ..؟

وعلى الذين يمارسون التغيير أن يحذروا .

فقد تصيبهم النار قبل أن يغشى عيونهم النور ، وعليهم أن يغيروا من هدفهم فلقد انكشف للناس .

وخير للغرب أن يبتعد عن فتنة المؤمنين عن دينهم ، فإن السهم قد يرتد أول ما يرتد إلى صدره ، وقد تصيبه النار قبل أن يرى النور ، خير أن يحتفظ «بصداقة» الشرق الإسلامى ، ويحافظ على مصالحه الاقتصادية والتجارية فيه من أن يصر على التغيير ، فيفقد هذه المصالح ، ويجنى العداء إلى الأبد.

إن المسلمين لا يعادون الذين لا يقاتلونهم فى الدين ولا يخرجونهم من ديارهم ، بل إنهم على العكس يسالمونهم ، ويبرونهم ، ويقسطون إليهم ، فذلك أمر دينهم : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة] .

لكنهم فى نفس الوقت ينقلبون مع الزمن ، طال أو قصر ، إلى أسود غضاب إزاء من يقاتلهم فى دينهم ويفتنهم فيه ، وإزاء من يخرجهم من ديارهم ويسلبهم أوطانهم، ذاك أمر ربهم:﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة].

خير للغرب أن يدرك أنه يمكن لحضارته أن تعيش إذا تركت حضارة الإسلام كذلك لتعيش، وأنه يمكن للحضارتين أن يتعايشا :﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون]، وأنه خير أن تتعايش الحضارتان من أن تصر حضارتهم على العيش وحدها .

فتفنى بإذن الله وحدها .

لأننا نؤمن أن الله حافظ دينه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر]، ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ ﴾ [الصف :٨]، ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ

ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [التوبة]، فأى الطريقين يختارون ؟

ولا يخشى الغرب أن يغزوه الإسلام مرة أخرى .

فحسبنا اليوم وسائل الإعلام .

وحسبنا اليوم وعى الناس .

وحسبنا اليوم أن نترك لهم الخيار ، فإنه :﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾[البقرة :٢٥٦] .

وحسبنا درس الامتداد العضوى الذى مارسته تركيا من غير بسط فكرى ولا عقائدى.

فارتد المد جزرا أصاب الأمة فى كبدها وفى قلبها ..

حسبنا الدرس التاريخى ، أن نكرره مرة أخرى .

وحسبنا أن ننظم بيتنا، ونضمد جروحنا، ونستعيد أنفسنا، فأمامنا لذلك سنين إن لم يكن قرون ..!

ولا نترك هذا التعقيب، حتى نقول لأبنائنا وإخوتنا ـ ممن لا يزالون ـ وإن كانوا قلة ـ فإنهم أعزاء علينا أن يفارقونا، ويفارقوا قومهم، نقول لهم :

إن فى الغرب بضاعتين ؛ بضاعة يزجيها إليكم ، وبضاعة يضنُّ بها عليكم .

فأما التى يزجى ، فإنها تسلبكم أخلاقكم ، وقيمكم ، وتاريخكم ، وشخصيتكم .

وأما التى يضن ، فهى سر تفوقه المادى عليكم ، هى علمه وفنون صناعته (تكنولوجيته) .

فما بالكم أقبلتم على التى يزجى ، وتركتم التى بها يضن !!

فما حصلتم غير القشور، غير الزبد، وتركتم ما ينفع الناس !

إن فى خزائننا الجواهر ، وإن علاها التراب من طول الزمن وكثرة الكيد [1]، وإن ما عندهم سراب خادع، أو معدن براق ، لكنه غير أصيل ، فلا ينبغى أن نترك الجواهر فى خزائننا ، لنمد أيدينا للمعادن غير الأصيلة .

ما ينبغى أن تكون اليد المتوضئة هى السفلى .

واليد الأخرى هى العليا .

فكيف إذا كانت اليد المتوضئة تملك الجواهر ؟ كيف ترضى أن تمتد ، وأن تكون هى السفلى ؟!

وذلك لا يمنع من أن نستفيد بعلم الغرب وتجربته .

من غير أن نهجر قيمنا ، ومبادئنا ، وأخلاقنا ، وعقيدتنا من غير أن نترك ديننا ، فلا نبيع ديننا ولو كان بالدنيا كلها ..!

---

(١) يقول الشاعر :

إن الجواهر فى التراب جواهر والأسد فى قفص الحديد أسود

obeikandl.com